القانون

33

اكتشف أداة الضغط على كل شخص

الحكم

في كل إنسان نقطة ضعف، فجوة في سور القلعة. ونقطة الضعف هذه قد تكون عدم الشعور بالأمن، أو عاطفة أو حاجة لا يمكن ضبطها والسيطرة عليها؛ وقد تكون أيضاً مَسَرَّةً صغيرة خفيّة. ومهما كانت فإنها عند العثور عليها تكون هي أداة الضغط التي يمكنك أن تديرها كما تدير أسنان البرغي لمصلحتك.

العثور على أداة الضغط: خطة عمل استراتيجية

لدينا جميعاً مقاومة. فنحن نعيش بدرع دائم ملفوف على أنفسنا ليحمينا من التغيير ومن الأعمال المتطفلة لأصدقائنا ومنافسينا. ونحن لا نحب شيئاً أكثر من تركنا نعمل الأشياء بطريقتنا الخاصة. إن مناطحة هذه المقاوِمَاتِ باستمرار تكلفك كثيراً من الطاقة. غير أن من أهم الأشياء التي ينبغي إدراكها عن الناس هو أن لديهم جميعاً نقاط ضعف، جزء من درعهم النفسي لا يقاوم، بل ينحني لإرادتك إذا عثرتَ عليه وقمتَ بالضغط. وبعض الناس تكون نقاط الضعف فيهم واضحة مكشوفة، بينما يخفيها آخرون. وكثيراً ما يكون الذين يموّهون نقاط ضعفهم هم المعرضون للرضوخ على نحو أكثر فاعلية من خلال ذلك الشقّ في درعهم.

وعند تخطيط هجومك، أَبْقِ المبادىءَ التالية ماثلةً في ذهنك:

انتبه للإشارات والعلامات غير الواعية: كما يقول سيغموند فرويد: «لا يستطيع إنسان أن يكتم سراً. فإذا صمتت شفتاه، فإنه يثرثر بأصابعه؛ فالخيانة التي تنم عنه تنزّ من كل واحدة من مَسَامَاتِه». وهذا مفهوم حساس الأهمية في البحث عن نقطة ضعف شخصٍ مّا ـ وهي تنكشف عن طريق إشارات تبدو غير هامّة وكلمات عابرة.

والمفتاح ليس ما تبحث عنه فحسب، بل أين تبحث وكيف تبحث. فالمحادثة اليومية تقدم أغنى منجم بنقاط الضعف. وهكذا درِّب

نفسك على الاستماع. وابدأ بأن تبدو مهتماً على الدوام ـ ذلك أن ظهور أذنٍ متعاطفة يحثّ كل شخص على الكلام. ومن الحيل البارعة التي كان يستعملها تاليران، السياسي الفرنسي في القرن التاسع عشر، هي الظهور بمظهر المنفتح على الشخص الآخر، ومشاطرته سرّاً مّا. وقد يكون ذلك السر مصنوعاً تماماً، وقد يكون حقيقيّاً ولكن لا أهمية كبيرة له عندك ـ فالمهم أنه يجب أن يبدو خارجاً من القلب، فذلك يستدرج في العادة استجابة ليست صريحة كصراحتك فحسب، بل أكثر أصالة. وهي استجابة تكشف نقطة ضعف.

فإذا شككت في أن شخصاً مّا لديه نقطة ضعف مخصوصة فاسبر غَوْرَه بحثاً عنها بطريقة غير مباشرة. وعلى سبيل المثال، إذا شعرتَ بأن رجلاً في حاجة إلى أن يُحَبّ فتملّقه علناً، فإذا تقبل مدائحك، مهما كانت سافرة، فإنك على الطريق الصحيح. ودَرِّبْ عينك على ملاحظة التفاصيل ـ كيف يدفع شخصٌ مّا إكرامية للنادل، وما الذي يسرّ شخصاً مّا، والرسائل الخفية المستقاة من الملابس. واكتشِفِ الأشياءَ المعبودةَ عند الناس والتي يفعلون أي شيء للحصول عليها. فلعلك تستطيع أن تصبح مجهزَ ما يحبونه ويتخيلونه. تذكّر: بما أننا جميعاً نحاول أن نخفي نقاط ضعفنا، فليس هناك ما يمكن تعلمه من سلوكنا الواعي. إن ما ينزّ في الأشياء الصغيرة خارج سيطرتنا الواعية هي بالضبط ما تريد أنت معرفته.

اعثر على الطفل البائس: تبدأ معظم نقاط الضعف من الطفولة. قبل أن تبني النفس دفاعاتها التعويضية. فربما كان الطفل مدللاً وطلباته ملبّاة في مجال معين، أو لعلّ حاجة عاطفية معينة بقيت بلا تلبية؛ ومع نمو الطفل فإن التدليل أو النقص قد يُدْفَنَان ولكنهما لا يختفيان أبداً. فالمعرفة بحاجة الطفولة تعطيك مفتاحاً قوياً لضعف شخصٍ مّا.

ومن علامات هذا الضعف أنك عندما تلمسه فإن الشخص كثيراً ما يتصرف كطفل. فابحث إذن عن أي سلوك كان يجب أن يكون قد انتهى

مع نمو الشخص. فإذا كان ضحاياك أو منافسوك قد حرموا من شيء سنة في طفولتهم فقدمه لهم أو قدّمْ صورة طبق الأصل له. فإذا كشفوا عن ذوقٍ سريّ مّا، أو انغماس في شيء خفيٍّ مّا، فاعطه لهم، وأطلق لهم العنان لإشباع تلك الرغبة، وسيعجزون عن مقاومتك.

ابحث عن المتناقضات: إن الخصلة العلنية كثيراً ما تخفي عكسها. فالناس الذين يدقون على صدورهم غالباً ما يكونون من أكبر الجبناء. وربما أخفى المظهرُ الخارجيُّ المفرطُ الاحتشام، جوهراً داعراً فاسقاً؛ وكثيراً ما يكون الجامدون، بشكل تقليدي، هم الصارخون (ضمناً) في طلب المغامرة؛ أما الخجولون، فهم المتشوقون جداً إلى لفت الأنظار. فبالبحث خلف المظاهر كثيراً ما تعثر لدى الناس على نقاط ضعف تعاكس الخصائل التي يكشفونها لك.

جِذ حلقة الوصل الضعيفة: في بحثك عن نقاط الضعف أحياناً لا يكون المهم «ماذا»، بل «من». ففي نُسَخِ اليوم عن البلاط هناك غالباً شخصٌ مّا خلف الكواليس لديه كثير من السلطة، ونفوذ هائل على الشخص الموجود سطحياً على القمة. إن وسطاء السلطة القابعين خلف الكواليس هؤلاء هم نقطة ضعف المجموعة. اكسب ودّهم وسوف تؤثر على الملك بصورة غير مباشرة. والبديل الممكن لذلك، حتى في مجموعة من الناس، تعطي مظهر أناس يتصرفون بإرادة واحدة ـ كما هي الحال في مجموعة واقعة تحت الهجوم، فهي ترصّ صفوفها لمقاومة شخص خارجي. هناك دائماً حلقة ضعيفة في السلسلة. فاعثر على الشخص الذي ينحني تحت الضغط.

املأ الفراغ: إن الفراغين العاطفيين الرئيسيّين اللذين يتعين ملؤهما هما انعدام الأمن وانعدام السعادة. ففاقدو الأمن يتعطشون لأي نوع من الاعتراف الاجتماعي بهم. أما بالنسبة للمصابين بتعاسة مزمنة فابحث عن جذور تعاستهم. فالناس غير الآمنين وغير السعداء هم أعجز الناس عن

إرفنغ لازار
كان [الوكيل الهوليودي الكبير] إرفنغ لازار مثلهاً ذات مرة لبيع روايةٍ لـ [قطب الاستديوهات] جاك ل. وارنر. فأوضح

تمويه ضعفهم وإخفائه. إن القدرة على ملء فراغاتهم العاطفية هي مصدر عظيم للسلطة التي يمكن إطالتها بلا حدود.

تَغَذَّ على العواطف الخارجة عن السيطرة: قد تكون العاطفة الخارجة عن السيطرة هي خوف الارتياب الجنوني في الآخرين (البارانويا) ـ وهو خوف غير متناسب مع الوضع. أو أي دافع خسيس كالشهوة، والطمع، والغرور، والكراهية. فالناس الواقعون في براثن هذه العواطف كثيراً ما يعجزون عن ضبط أنفسهم، ويمكنك أن تقوم بالسيطرة نيابة عنه.

حالات مراعاة القانون

المراعاة الأولى

في سنة 1615، قام أُسقف لوصون البالغ من العمر ثلاثين عاماً والذي عرف فيما بعد باسم الكردينال ريشيليو، بإلقاء خطاب أمام ممثلي الطبقات الثلاث في فرنسا، وهم رجال الدين، والنبلاء، والعامة. وكان ريشيليو قد انتُخِبَ ليعمل ناطقاً باسم رجال الدين ـ فكانت تلك مسؤولية هائلة، لرجل لا يزال شاباً وغير معروف جيداً. وفيما يتصل بكل القضايا الهامة في ذلك الوقت، كان الخطاب يتبع خط الكنيسة. ولكن عندما اقترب الخطاب من نهايته، عمل ريشيليو شيئاً لا علاقة له بالكنيسة، وله كل العلاقة بمستقبل حياته العملية. فتوجَّه ريشيليو إلى عرش الملك لويس الثالث عشر، الذي كان في الخامسة عشرة من عمره، وإلى أمه الملكة ماري دي مديتشي، التي كانت تجلس إلى جانب لويس باعتبارها الوصية الحاكمة لفرنسا حتى يبلغ ابنها سن الرشد. وقد توقع الجميع من ريشيليو أن يقول الكلمات اللطيفة المعتادة للملك الشاب. غير أنه، بدلاً من ذلك، التفت مباشرة إلى الملكة الأم، وإليها فقط. وأنهى خطابه في الواقع بمديح مستفيضٍ لها يبعث على الغثيان لانطوائه على الرياء، مديح بلغ من توهّجه أنه ضايق بعض الناس في الكنيسة. ولكن الابتسامة على

الأمر [لكاتب المشاهد السينمائية غارسون كانين] قائلاً: «لقد اجتمعتُ به مطوّلاً اليوم، ولكنني لم أذكر الأمر له، بل إنني لم أطرحه للبحث أصلاً» فسألته: «لماذا؟»، فقال: لأنني سأنتظر حتى عطلة نهاية الأسبوع ما بعد القادم، عندما أذهب إلى بالم سبرنغز»، فقلت له: «إنني لا أفهم». فقال: «لا تفهم؟ إنني أذهب إلى بالم سبرنغز في نهاية كل أسبوع، ولكن وارنر غير ذاهب إلى هناك في عطلة نهاية هذا الأسبوع، فلديه عرض مسبق لفيلم أو ارتباطٌ ما، ولذا فإنه لن يأتي حتى نهاية الأسبوع التالي، وعندئذٍ سأطرح الموضوع عليه». فقلت له: «يا إرفنغ، إنك تزيدني حيرة على حيرة». فقال إرفنغ وقد فرغ صبره: «انظر. إنني أعرف ما أفعل. وأعرف كيف أبيع وارنر. فهذا نوع من المواد لا يرتاح له، ولذا فإن عليّ أن أوجّه إليه بها ضربة قاسية أفاجئه بها كي أحصل منه على الموافقة». فسألته: «ولكن لماذا في بالم سبرنغز؟» فأجاب: «لأنه في بالم سبرنغز يذهب كل يوم إلى حمام المياه المعدنية في المتجع، وسأكون هناك عند وصوله. وهناك شيء له خصوصية في جاك، فهو في الثمانين من عمره، وهو مغرور جداً. وهو لا يحب أن يراه الناس عارياً. وهكذا سأتجه إليه عارياً في المتجع ـ أقصد عندما يكون هو عارياً ... حسناً، سأكون أنا عارياً كذلك، ولكنني لا أهتم بمن قد يراني. أما هو

وجه الملكة بينما كانت تلعق مدائح ريشيليو بتلذذ، كانت شيئاً لا يُنْسَىٰ.

وبعد عام، قامت الملكة الأم بتعيين ريشيليو وزيرَ دولة للشؤون الخارجية، فكان ذلك انقلاباً لا يصدّق بالنسبة للأسقف الشاب. إذْ أنه بذلك قد دخل إلى الدائرة الداخلية للسلطة. فراح يدرس أعمال البلاط كما لو كانت هي الآلات الداخلية للساعة. كان هناك إيطالي يدعى كونيسنو كونسيني هو صاحب الحظوة لدى الملكة الأم، بل عشيقها. وهذا دور لعله قد جعله أقوى رجل في فرنسا. وكان كونسيني مغروراً ومتغندراً يسرف في أناقته، فاستغل ريشيليو هذه النزعة فيه إلى الحد الأقصى - فراح يهتم بإرضائه وكأنه هو الملك. وفي غضون أشهر، صار ريشيليو من ذوي الحظوة لدى كونسيني. ولكن شيئاً حدث في سنة 1617، قلب كل شيء رأساً على عقب. ذلك أن الملك، الذي كان حتى ذلك الحين يظهر كل إشارة على أنه أبله دبّر اغتيال كونسيني وحبس كل المرتبطين به. وبهذا العمل، أمسك الملك بزمام الأمور في البلد بضربة واحدة، فكنس الملكة الأم جانباً.

فهل مارس ريشيليو اللعبة بطريقة خاطئة؟ لقد كان قريباً من كونسيني ومن ماري دي مديتشي كليهما، وقد فقد مستشاروهما ووزرائهما الآن كل حظوة، بل إن بعضهم قد اعتُقِلَ. وكانت الملكة الأم نفسها حبيسة اللوفر، وكأنها سجينة من الناحية العملية. فلم يُضِعْ ريشيليو وقتاً. وقرر أنه إذا كان الجميع قد تخلّوا عن ماري دي مديتشي فسوف يقف إلى جانبها. كان يعرف أن لويسَ لا يستطيع التخلص منها، لأن الملك ما يزال صغير السن جداً. وكان على أية حال شديد التعلق بها دائماً. ولما كان ريشيليو هو الصديق الوحيد ذو السلطة الذي بقي لماري، فقد أدى المهمة الثمينة كصلة للوصل بين الملك وأمّه. وفي مقابل ذلك تلقى حمايتها، واستطاع أن ينجو من انقلاب القصر، بل ويزدهر وينتعش. وعلى مدى السنوات القليلة التالية زاد اعتماد الملكة عليه، وفي سنة 1622، دفعت له ثمن ولائه. فعن طريق شفاعة حلفائها

فيهتم. فسوف أتجه إليه عارياً وأبدأ بالحديث من هذا الشيء. وعندئذٍ فإنه سيشعر بحرجٍ شديد. وسيريد الابتعاد عني، وأسهل طريقة لذلك أن يقول «نعم»، لأنه يعرف أنه إذا قال «لا» فسوف ألتصق به وأظل أتحاور معه بلا كلل. فلكي يتخلص مني، فإنه سيقول «نعم» على الأرجح. وبعد أسبوعين، قرأت من حصول الأخوين دارنر على ملكية ذلك الشيء بالذات. فاتصلت بلازار هاتفياً وسألته كيف أتم الصفقة. فسألني: «كيف تظن أنني فعلتها؟ لقد خففت عليه الصدمة، وأنهيت الأمر بالطريقة التي قلت لك إنني سأطبقها، وقد نجحت».

هوليود
غارسون كانين،
1974

في روما رُفّع ريشيليو إلى رتبة الكاردينال القوية ذات السلطة.

وبحلول سنة 1623، وقع الملك لويس في متاعب. فلم يكن لديه أحد يثق به ليتلقى مشورته، ورغم أنه كان شاباً ولم يعد صبياً، فقد ظلت روحه طفولية. وكانت شؤون الدولة صعبة عليه؛ أمّا وقد أخذ العرش، فلم تعد ماري وصية عليه، ومن الناحية النظرية لم تكن لديها أية سلطة. ولكنها كانت لا تزال قريبة من أُذُنِ ولدها ومسموعة الكلمة عنده. فظلّت تكرر على مسامعه أن ريشيليو هو منقذه المحتمل الوحيد: وفي بادىء الأمر لم يكن لويس ليقبل ذلك، إذ أنه كان يكره الكردينال بعنف، ولا يتقبل وجوده إلاّ مراعاة لحبّه لأمه. غير أنه صار في آخر الأمر منعزلاً في بلاطه، ومُقْعَداً بسبب تردده، فاستسلم لأمّه، وجعل ريشيليو مستشاره في البداية، ثم رئيساً لوزرائه فيما بعد.

وعندئذ لم يعد ريشيليو بحاجة إلى ماري دي مديتشي، توقف عن زيارتها والتزلّف إليها. وتوقف عن الاستماع إلى آرائها، بل راح يجادلها ويعارض رغباتها. وركّز على الملك بدلاً منها، فجعل نفسه عنصراً لا يستغني عنه سيده. وكان كل رؤساء الوزارة السابقين يتفهمون عقلية الملك الطفولية، فحاولوا إبعاده عن المتاعب؛ أما ريشيليو فاستغلّه بطريقة أخرى، متعمداً دفعه إلى مشروع طموح بعد آخر، مثل الحملة الصليبية ضد الهوغونوت (البروتستانت الفرنسيين)، وأخيراً زجّه في حرب متطاولة مع إسبانيا. وأدت ضخامة هذه المشاريع، إلى جعل الملك أكثر اعتماداً على رئيس وزرائه القوي، الوحيد القادر على حفظ النظام في المملكة. وهكذا، على مدى الأعوام الثمانية عشر التالية، راح ريشيليو يحكم فرنسا ويقولبها حسب رؤيته الخاصة، مستغِلاً ضَعْفَ الملك، فوحّد البلد وجعله قوةً أوروبيةً صلبةً طيلة عدة قرون بعد ذلك.

التفسير

كان ريشيليو يرى كل شيء كأنّه حملة عسكرية، ولم تكن هناك أية حركة استراتيجية أهمّ عنده من اكتشاف نقاط ضعف العدو، وممارسة

للاشياء الصغيرة اهميتها

ومع مرور الزمن رأيتني أبحث عن نقاط الضعف الصغيرة... فالأشياء الصغيرة هي التي تهم. وفي إحدى المناسبات، حاولت التأثير على رئيس مصرف في أوساها. وكانت الصفقة [المزيفة] تنطوي على شراء نظام سكك الحديد في شوارع أوساها، ويشمل ذلك جسراً على نهر المسيبي. وكان المفروض أن رؤسائي

الضغط عليه. فمنذ وقت مبكر، عندما ألقى خطابه سنة 1615، كان يبحث عن الحلقة الضعيفة في سلسلة السلطة، ورأى أن تلك الحلقة هي الملكة الوالدة. ليس لأن ماري دي مديتشي كانت ضعيفة بوضوح ـ فقد كانت تحكم فرنسا وولدها معاً؛ ولكن ريشيليو رأى أنها في الحقيقة كانت امرأة لا تشعر بالأمان، وتحتاج إلى رعاية مستمرة من أحد الذكور، فأمطرها بالعاطفة والاحترام، بل أخذ يتملق صاحبَ الحظوةَ لديها، كونسيني. وكان يعلم أن يوماً سيأتي عندما يتولى الملك الأمور، ولكنه كان يدرك أيضاً أن لويس يحب أمه حباً جماً، وسيظل دائماً طفلاً في علاقته معاً. وإذن، فإن الطريق للسيطرة على لويس ليس بكسب ودّه، الذي قد يتغير بين عشية وضحاها، بل بكسب السيطرة على أمه، التي لن تتغير مودته لها.

وما إن حصل ريشيليو على المركز الذي رغب فيه ـ رئاسة الوزراء ـ حتى ألقى بالملكة الأم جانباً، منتقلاً إلى الحلقة الضعيفة التالية في السلسلة: شخصية الملك لويس نفسه. فقد كان فيه جزء يبقيه على الدوام طفلاً لا حول له يحتاج إلى سلطة أعلى. وهكذا بنى ريشيليو سلطته وشهرته على أساس ضعف الملك.

تذكّر: عند دخول البلاط، ابحث عن الحلقة الضعيفة. فالشخص المسيطر كثيراً ما لا يكون الملك أو الملكة، بل هو شخصٌ مّا خلف الكواليس، صاحبِ الحظوة، الزوج أو الزوجة، وحتى مهرج البلاط. وقد تكون في هذا الشخص نقاط ضعف أكثر حتى من الملك نفسه، لأن سلطته تعتمد على جميع أنواع العوامل المتقلّبة الخارجة عن سيطرته.

وأخيراً، عند تعاملك مع الأطفال الضعفاء الذين لا يستطيعون اتخاذ القرارات، استغلّ ضعفهم ودفعهم إلى مغامرات جريئة. فيضطرون إلى الاعتماد عليك. أكثر فأكثر لأنك ستصبح الشخص البالغ الذي يعتمدون عليه لإخراجهم من المآزق والاتجاه بهم نحو السلامة.

ألمان، وأن عليّ أن أتفاوض مع برلين. وبينما كنت في انتظار كلمة منهم قدمت اقتراحي لمشروع شركة تعدين مزيفة. وبما أن ذلك الرجل كان غنياً، فقد قررت أن أقامر بمبالغ كبيرة... وفي تلك الأثناء كنت أمارس لعبة الغولف مع المصرفيّ، وزرته في بيته، وذهبت معه ومع زوجته إلى المسرح. ورغم أنه أظهر اهتماماً بمشروع صفقتي الخاصة بالشركة المساهمة المذكورة، فإنه لم يكن قد اقتنع به بعد. وقد بنيتُ إلى حد أنه كان مطلوباً استثمار مليون وربع مليون دولار فيه، أقدم منها تسعمائة ألف ويقدم المصرفي ثلاثمائة وخمسين ألفاً. ومع ذلك فقد ظل يتردد. وذات مساء، بينما كنت في بيته مدعواً إلى العشاء، وكنت متعطّراً بعطرٍ بدعى «بنفسج نيسان»، من صنع كوتي، ولم يكن استخدام نفحة العطر آنذاك يُعتَبَرُ تَخَنُّثاً عند الرجل، فاعتبرتْ زوجةُ المصرفي ذلك العطرَ شيئاً جميلاً، وسألتني: «من أين حصلت عليه؟» فأجبتها: «إنها خلطةٌ نادرة، يصنعها لي خصيصاً عطارٌ فرنسي، فهل تحبينها؟» فردّت: «إنني أعشقها». وفي اليوم التالي، تفحصت علبتي فأبصرت فيها زجاجتين فارغتين، وكلاهما من صنع فرنسي. فذهبت إلى دكان في وسط المدينة واشتريت عشر أونصات من «بنفسج نيسان» من صنع كوتي، وصبَبْتُها في الزجاجتين الفرنسيتين وختمتُهما بعناية، وغلّفتُهما بورق رقيق شبه شفاف.

المراعاة الثانية

في كانون الأول/ ديسمبر 1925، نظر نزلاء أفخم فندق في بالم بيتش، في فلوريدا باهتمام عندما وصل رجل غامض بسيارة رولز رويس يقودها سائق ياباني. وعلى مدى الأيام القليلة التالية راحوا يدرسون هذا الرجل الأنيق الذي كان يمشي متوكئاً على عصا فاخرة، وهو يتلقى برقيات في كل الأوقات ولا ينهمك إلاَّ في أقصر المحادثات. وقد سمعوا أنه كونت، يدعى الكونب فكتور لاستيغ، ينحدر من أغنى الأسر في أوروبا ـ وكان هذا هو كل ما استطاعوا أن يكتشفوه عنه.

ويمكنك أن تتخيل ذهولهم إذن عندما جاء لاستيغ يوماً إلى واحدٍ من أقل نزلاء الفندق تميزاً، ويدعى هيرمان لُولَرْ، وهو رئيس شركة هندسية، وشرع معه في محادثة. وكان لولر قد كوّن ثروته حديثاً آنذاك، وكانت إقامة علاقات اجتماعية شيئاً هاماً جداً عنده. فشعر بالتكريم والرهبة من هذا الرجل المصقول المحنك، الذي يتحدث بلغة إنكليزية مثالية، فيها لمحة من لكنة أجنبية. وفي غضون الأيام التالية صار الرجلان صديقين.

وكان لولر بالطبع يقوم بمعظم الحديث. فاعترف ذات ليلة بأن تجارته كانت سيئة الأداء، مع توقع مزيد من المتاعب. وفي المقابل أَسَرَّ لاستيغ إلى صديقه الجديد أنه هو أيضاً يعاني مشاكل مالية خطيرة، فقد استولى الشيوعيون على عقارات أسرته وكل موجوداتها وأرصدتها. وكان أكبر سناً من أن يبدأ بتعلم حرفة ويذهب إلى العمل. ولكنه لحسن الحظ قد عثر على الحلّ وهو «آلة تصنع النقود» فهمس لولر في أذنه وهو نصف مصدوم: «هل تزوّر؟» فأجاب لاستغ بالنفي، وشرح كيف تستطيع آلته أن تضاعف العملة الورقية بدقة كاملة. فإذا وضعتَ فيها ورقة من فئة الدولار فسيكون لديك دولاران في غضون ست ساعات وكلاهما صحيح تماماً. واستمر يشرح كيف تم تهريب الآلة من أوروبا، وكيف كان الألمان قد طوروها لإضعاف البريطانيين، وكيف قدمت تلك الآلة الدعم للكونت

وفي ذلك المساء، مررت ببيت الصيرفيّ وأهديت الزجاجتين لزوجته وقلت لها: «لقد تمّت تعبئتهما لي خصيصاً في كولون». وفي اليوم التالي زارني الصيرفي في غرفتي بالفندق. كان العطر قد سحر زوجته، فاعتبرتْهُ من أروع العطور التي استخدمتْها طيلة حياتها وأغربها. ولم أقل للصيرفي إنه يستطيع الحصول على كل ما يريد من هذا العطر في أوماها نفسها. وأضاف الصيرفي: «لقد قالت لي إنني محظوظ لاتصالي برجل مثلك». ومنذ ذلك الحين تغير موقفه. فقد كان لديه إيمان كامل بأحكام زوجته... ودفع لي الثلاثمائة وخمسين ألف دولار. وكان هذا أكبر رقم قياسي سجلتْهُ كمكسب من [أحابيلي].

ويلْ «الغلام الأصفر»
1875 ـ 1976

سنوات عديدة، وهكذا دواليك. وعندما أصرّ لولر على أن يرى عرضاً لعمل الآلة ذهب الاثنان إلى غرفة لاستيغ، حيث أخرج الكونت صندوقاً رائعاً من خشب الماهوغاني، فيه شقوق محفورة ومقابض وأقراص مدرّجة. وراقب لولر الكونت وهو يدخل ورقة من فئة الدولار في الصندوق. وبالفعل سحب لاستيغ من الصندوق في صباح اليوم التالي ورقتين لا تزالان رطبتين من أثر المواد الكيميائية.

وأعطى لاستيغ الدولارين للولر الذي أخذهما فوراً إلى مصرف محلي فقبلهما المصرف على أنهما أصليتان. وعندئذ بدأ التاجر يتوسل بلاستيغ على نحو محموم كي يبيعه الآلة. فأوضح الكونت أن هناك آلة واحدة فقط، فقدم له لولر عرضاً سخياً هو 25000 دولار، وكان هذا مبلغاً محترماً آنذاك (يعادل أكثر من 400000 دولار بأسعار عملة اليوم). ورغم ذلك بدا لاستيغ مُحْجِماً: إذ أنه لم يشعر بأنه محقّ في جعل صديقه يدفع مثل هذا المبلغ، ومع ذلك وافق على البيع في آخر الأمر، فقال: «أعتقد أن ما تدفعه لي ليس هاماً أبداً، لأنك بعد كل شيء سوف تستعيد المبلغ في غضون أيام قليلة بمضاعفة أوراقك النقدية»، ثم جعل لولر يقسم أن لا يبوح بوجود الآلة لأناس آخرين وقَبِلَ منه المبلغ. وفي وقت لاحق من اليوم نفسه غادر لاستيغ الفندق. وبعد عام، وبعد كثير من المحاولات الفاشلة لمضاعفة الأوراق النقدية، ذهب لولر إلى رجال الشرطة بقصة كيفية خداع لاستيغ له بورقتين من فئة الدولار، وبعض المواد الكيميائية، وصندوق من الماهوغاني لا قيمة له.

التفسير

كانت للكونت لاستيغ عينا نِسْرٍ تَرَيَانِ نقاط ضَعْف الآخرين. وكان يرى هذه النقاط في أصغر الإشارات. وعلى سبيل المثال، كان لولر يعطي الخدم إكراميات مفرطة، وكان يبدو عصبياً في الحديث مع البوّاب، وكان يتحدث عن تجارته بصوت عال. فَعَلِمَ لاستيغ أن نقطة ضعفه هي حاجته إلى الاعتراف الاجتماعي به، وإلى الاحترام الذي

يعتقد أن ثروته قد أكسبته إياه كما كان لديه شعور مزمن بعدم الأمن. وكان لاستيغ قد جاء إلى الفندق صياداً يبحث عن فريسة. وعثر في لولر على المغفّل الكامل ـ وهو رجل متعطش لشخص يسدّ فراغاته النفسية.

ولذا فعندما عرض لاستيغ صداقته على لولر، كان يعرف أنه يعرض عليه الاحترام الفوري من النزلاء الآخرين. وباعتبار لاستيغ يحمل لقب الكونت، فإنه كان يعرض على لولر أيضاً (وهو التاجر المحدث النعمة) الوصولَ إلى عالم الثراء العريق ذي البريق. وأما الضربة القاضية فكانت أن لاستيغ يملك آلة سيكون من شأنها تخليص لولر من همومه، بل إنها ستضعه على قدم المساواة مع لاستيغ نفسه، الذي استخدم تلك الآلة أيضاً للحفاظ على مكانته. فلا عجب إذا ابتلع لولر الطعم.

تذكّر: عند بحثك عن مغفلين، ابحث دائماً عن الساخطين والتعساء والشاعرين بعدم الأمن. فمثل هؤلاء الناس مليئون بنقاط الضعف ولهم احتياجات تستطيع أن تلبيها لهم، فالحاجة هي الشق الذي تضع فيه إظفر إبهامك ثم تديره كيف تشاء.

المراعاة الثالثة

في سنة 1559، مات ملك فرنسا هنري الثاني في معرض مثاقفة ومبارزة. فتولى ابنه العرش وأصبح الملك فرنسيس الثاني، ولكن في الخلفيّة كانت تقف زوجة هنري، الملكة كاترين دي مديتشي، وهي امرأة كانت قد أثبتت منذ زمن طويل براعتها في شؤون الدولة. وعندما مات فرانسيس في العام التالي سيطرت كاترين على البلد كوصية لابنها التالي دوره في الصعود إلى العرش والذي سَيُعْرف في قابل الأيام بالملك شارل التاسع، وكان في ذلك الوقت ما يزال صبياً في العاشرة.

وكان التهديدان الرئيسيان لسلطة الملكة يأتيان من أنطوان دي بوربون ملك نافار وشقيقه لويس، الأمير القوي لمقاطعة كوندي. وكان كل منهما يستطيع المطالبة بالحق في الخدمة كوصيّ بدلاً من كاترين التي كانت بعد كل شيء إيطالية، أي أجنبية. فسارعَتْ كاترين إلى تعيين

وبمناسبة الحديث عن هذا الموضوع، فإن هناك حقيقة أخرى تستحق الذكر، وهي هذه: إن الرجل يُظْهِرُ شخصيته من خلال الطريقة التي يتعامل بها مع السفاسف ـ لأنه عندئذٍ يغفل عن حذره. وكثيراً ما تقدم هذه الغفلة فرصة جيدة لمراقبة طبيعة الإنسان ذات الأنانية التي لا حدود لها، وعدم اهتمامه بالآخرين على الإطلاق. وإذا برزت هذه العيوب في الأشياء الصغيرة، أو في سلوكه العام، فإنك ستجد أنها كامنة أيضاً وراء تصرفه في القضايا الهامة، رغم أنه قَدْ يُمَوِّهُ هذه الحقيقة. وهذه فرصة ينبغي أن لا تضيع. فإذا كان الإنسان غير مراعٍ لحقوق الآخرين في القضايا اليومية الصغيرة ـ توافه الحياة ـ، ولا يحث إلاّ عما هو مفيد ومناسب له، مع الإضرار بحقوق الآخرين، وإذا كان يتحلل لنفسه ما يخصّ الجميع على حد سواء،

فإنك تتأكد أنه ليس في قلبه عدل، وأنه سيكون وَغْداً على نطاق كلّي شامل، وأنه لا يخلّ بيديه سوى القانون والإجبار.

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

أنطوان قائداً عسكرياً للمملكة برتبة فريق، وهو لقبٌ بَدَا أنه أرضى طموحه. وكان يعني أيضاً أن عليه أن يبقى في البلاط، تحت أنظار كاترين. وأثبتت حركتها التالية أنها أشد ذكاء وأدهى. فقد اشتهر عن أنطوان ولعه بالنساء الشابات. وهكذا عينت الملكة أكثر وصيفاتها جاذبية، وهي لويز دي رُويهْ، خصيصاً لإغوائه. وعندما أصبحت خليلته ذات العلاقة الحميمة به راحت تُبلغ كاترين بكل أعماله. ونجحت الحركة بألمعية جعلت كاترين تعين واحدة أخرى من وصيفاتها لتولي أمر أمير كوندي. وهكذا تَشَكَّل «فريقُها الطائر» من الفتيات اللواتي استخدمتهن لإبقاء الذكور في البلاط تحت سيطرتها دون أن يشكّوا في أي شيء.

وفي سنة 1572، زوجت كاترين ابنتها، مارغريت دي فالوا، من هنري ابن أنطوان والملك الجديد لنافار. وكان جلبُ عائلة ظلت تكافح ضد كاترين دائماً إلى مكان قريب من السلطة إلى هذا الحدّ حركةً خطرةً. وهكذا لكي تضمن ولاء هنري سلّطت عليه أجمل فتيات «فريقها الطائر»، شارلوت دي بون، بارونة سواف. وقد فعلت كاترين ذلك رغم أن هنري كان متزوجاً من ابنتها. وفي غضون أسابيع، كتبت مارغريت دي فالوا في مذكراتها: «لقد أوقعت المدام دي سواف زوجي في حبائلها إلى درجة أننا لم نعد ننام معاً، بل ولا نتحدث».

وكانت البارونة جاسوسة ممتازة، وساعدت على إبقاء هنري تحت سيطرة كاترين. وعندما صار ابن الملكة الأصغر، دوق آلينصون قريباً من هنري بصورة حميمة، خافت أن يتآمر الاثنان عليها، فسلّطت البارونة على ابنها كذلك. فقامت هذه العضوة الألعن في الفريق الطائر بإغواء آلينصون بسرعة، وسرعان ما اقتتل الشابان عليها فانتهت صداقتهما بسرعة كذلك، وانتهى معها أي خطر للتآمر.

التفسير

منذ وقت شديد التبكير، رأت كاترين السلطان الذي تملكه عشيقة

على رجلٍ ذي سلطة. فزوجها نفسه، هنري الثاني، كان قد اتخذ واحدة من ألعن العشيقات، وهي ديان دي بواتييه فتعلمت من تلك التجربة أن رجلاً كزوجها كان يريد أن يشعر بأنه قادر على الفوز بأية امرأة بدون الاعتماد على مكانته، التي ورثها ولم يكسبها. ومثل هذه الحاجة كانت فيها نقطة ضعف عمياء هائلة: فما دامت المرأة قد بدأت العلاقة بالتظاهر بأنها قد وقعت فريسة، فإن الرجل سيعجز عن ملاحظة كون العشيقة راحت ـ مع مرور الزمن ـ تمارس سلطة عليه، كما فعلت ديان مع هنري. وكانت خطة كاترين الاستراتيجية أن تستغل هذا الضعف لتديره لمصلحتها. وكل ما كان عليها أن تفعله هو تسليط أجمل النساء في بلاطها «فريقها الطائر»، على الرجال الذين كانت تعلم أنهم يشاطرون زوجها نقطة ضعفه المكشوفة.

تذكَّر: ابحث دائماً عن العواطف الجياشة، والهواجس المستحوِذة المتسلطة التي لا يمكن السيطرة عليها. فكلما كانت العاطفة أقوى، صار الشخص أكثر عرضة للانكشاف. وقد يبدو هذا مستغرباً لأن الرجال العاطفيين يبدون أقوياء. غير أنهم في الحقيقة يملؤون المسرح بحركاتهم الدرامية فيلهون الناس عن مدى ضعفهم وقلة حيلتهم في الواقع. إن احتياج الرجال إلى غزو قلوب النساء يكشف عن ضعف هائل ظل يحيلهم إلى مغفلين عبر آلاف السنين. فانظر إلى أكثر جوانب شخصياتهم وضوحاً للعيان ـ إلى طمعهم، وشهوتهم، وخوفهم الشديد. فهذه هي العواطف التي لا يستطيعون إخفاءها، والتي ليس لهم عليها سوى أقل سلطان ممكن. وما لا يستطيع الناس التحكم به، تتحكم به أنت.

المراعاة الرابعة

كانت آرابيلّلاَّ هَانْتِنْغْتُون، زوجة كوليس بوتّر هانتنغتون (1821 ـ 1900)، القطب الرائد في بناء سكك الحديد في أميركا في أواخر القرن التاسع عشر، تنحدر من أصول متواضعة، فكانت تكافح دوماً للاعتراف الاجتماعي بها في أوساط أترابها الأثرياء. فكانت عندما تقيم حفلاً في

معركة قرزاليا

وعندما وصل الجيشان [جيش يوليوس قيصر وجيش بومبي] إلى قرزاليا وعَسْكَرا هناك جميعاً، جَرَتْ أفكار بومبي بالطريقة نفسها التي كانت تجري بها من قبل، ضد القتال... ولكن مَنْ حوله كانوا على ثقة عظيمة بالنجاح... وكأنهم قد انتصروا بالفعل... وكان الخيالة على وجه الخصوص عنيدين في الإلحاح على القتال، لأنهم كانوا مسلحين جيداً، ويمتطون بشجاعةٍ صهواتِ الخيول الجيِّدة التي يقتنونها، ويعتمدون على قدراتهم وعلى ميزة أعدادهم، فقد كانوا خمسة آلاف في مقابل ألفٍ من رجال قيصر. ولم تكن أعداد المشاة تقل عن ذلك في نسبتها. فقد كان مشاة بومبي خمسةً وأربعين ألفاً، في مقابل اثنين وعشرين ألفاً لعدوّهم [وفي اليوم التالي] بينما كان المشاة مشتبكين بِجِدِّةٍ في المعركة، جاء حصان بومبي إلى الخاصرة بثقة، وفتح صفوف [خياله] على مدى مساحة واسعة جداً لتمكينهم من تطويق الجناح الأيمن لقيصر. ولكن قبل الاشتباك خرج إليهم رجال قيصر وهاجموهم، ولم يقذفوا برماحهم من على بُعْد، ولم يطعنوا الأفخاذ والسيقان، على عادتهم في القتال القريب، ولكنهم استهدفوا وجوههم، إذْ هكذا كانت تعليمات قيصر لهم، على أمل أن الشباب، الذين لم يكونوا يعرفون الكثير عن المعارك والجراح، وقد جاؤوا بشعورهم الطويلة،

قصرها في سان فرانسيسكو لا يذهب إليه من أهل النخبة إلاّ القليل. إذ كان معظمهم يعتبرونها امرأة تستغل جمالها للحصول على المال والهدايا من الرجال، فليست من طبقتهم. وبسبب ثروة زوجها الخرافية، كان تجار اللوحات الفنية يتزلفون إليها، ولكن بنظرة استعلائية متنازلة لأنهم كانوا يرون فيها مُحْدَثَةَ نعمة. فلم يعاملها بطريقة مختلفة عن ذلك سوى رجل واحد: هو التاجر جوزيف دوفين.

وخلال السنوات القليل الأولى من علاقة دوفين بآرابيلْلاً، لم يقم بمحاولة لبيعها تحفاً فنية غالية. وبدلاً من ذلك راح يصحبها إلى الدكاكين الفاخرة، ويثرثر بلا نهاية عن الملكات والأميرات اللواتي يعرفهن، وهكذا، حتى صارت تعتقد في آخر الأمر أنه رجل يعاملها كندٌ له، بل كمتفوقة عليه، في المجتمع الراقي. وفي تلك الأثناء، إذا كان دوفين لم يحاول أن يبيعها لوحات فنية، فقد ثقفها بطريقة خفية ذكية في مجال أفكاره الجمالية، أي علّمها أن أفضل الأعمال الفنية هي أغلاها ثمناً. وبعد أن تَشَرَّبت منه آرابيلْلاً طريقته في رؤية الأشياء، راح يتصرف وكأنها كانت دائماً ذات ذوق عذب رفيع، رغم أن تذوقها للجمال قبل أن تعرفه كان في الحضيض.

وعندما مات كوليس هانتنغتون سنة 1900، ورثت آرابيلْلاً ثروة. فشرعت فجأة في شراء اللوحات الغالية كأعمال رمبراندت وفيلاسكويز مثلاً ـ ومن دوفين حصراً. وبعد سنوات، باعها لوحة «الولد الأزرق» من أعمال الرسام الإنكليزي توماس غِينْزْبَرَهْ (1727 ـ 1788) بأغلى ثمنٍ دُفِعَ في عمل فنّي في ذلك الحين، فكان ذلك شراءً مثيراً للذهول قامت به عائلة لم تكن في السابق تظهر اهتماماً يذكر بتجميع الأعمال الفنية.

التفسير

لقد تفهم جوزيف دوفين آرابيلْلاً هانتنغتون على الفور، وعرف ما الذي يؤثر فيها ويجعلها تستجيب. كانت تريد أن تشعر بأنها هامة، وأنها

في زهرة عمرهم، وذروة جمالهم، سيكونون أكثر تخوفاً من مثل هذه الضربات، بحيث لا يهتمون بالمغامرة، بالتعرض للخطر في الوقت الراهن، ولا للعار الشائن في المستقبل.

وهكذا كان، لأنهم لم يستطيعوا تحمل طعنات الرماح، بل ولم يعودوا يطيقون النظر إليها. فراحوا يتدبرون ويَحْفَظون وجوهَهُمْ ليحافظوا عليها. وعندما انغرط عقد نظامهم، استداروا للهرب في الحال، وبذلك مرّروا كل شيء بطريقة مخزية، لأن أولئك الذين هزموهم طوّقوا المشاة وانقضوا على مؤخرتهم فمزقوهم شذر مذر.

وكان بومبي يقود الجناح الآخر للجيش. فلما رأى أن فرسانه قد تمزّقوا على هذه الشاكلة ولاذوا بالفرار، لم يعد هو نفسه، ولم يتذكر أنه بومبي العظيم، ولكن ـ مثل شخص حرمته الآلهة من كل أحاسيسه ـ تراجع إلى خيمته دون أن ينبسّ بكلمة. وجلس هناك ينتظر الواقعة، حتى تم دحر جيشه كله.

حياة يوليوس قيصر بلوتارخ، حوالى 46 ـ 120م.

في وسطها الملائم في المجتمع الراقي. وكان شعورها بعدم الأمن حادًّا بسبب خلفيتها الطبقية المتواضعة، فكانت تحتاج إلى توكيد مكانتها الاجتماعية الجديدة. فانتظر دوفين. وبدلاً من المسارعة إلى محاولة إقناعها باقتناء التحف الفنية، شرع يستغلّ نقاط ضعفها بطريقة خفية ذكية. فجعلها تشعر بأنها تستحق اهتمامه، ليس لأنها زوجة واحد من أغنى أثرياء العالم، ولكن بسبب شخصيتها الخاصة لذاتها. فأذابتها هذه الطريقة تماماً. فلم يعاملها على الإطلاق بطريقة استعلائية متنازلة؛ وبدلاً من إلقاء المحاضرات عليها، راح يشرّبها أفكاره بشكل غير مباشر. فكانت النتيجة أن جعلها واحدة من أفضل زبائنه وأخلصهم، وكذلك باعها «الولد الأزرق».

إن حاجة الناس إلى توكيد مكانتهم واعتراف المجتمع بها، وحاجتهم إلى الشعور بأهميتهم هي أفضل نقاط الضعف للاستغلال. فهي أولاً حاجة عالمية، وهي ثانياً سهلة الاستغلال جداً. فكل ما عليك أن تفعله هو إيجاد طرق تجعل الناس يحسون بشعورٍ أفضل عن ذوقهم، وعن مكانتهم الاجتماعية، وعن ذكائهم. وما أن تقع السمكة في الصنارة، حتى تصبح أنت قادراً على سحبها مرة بعد أخرى على مدى سنوات ـ لأنك تملأ دوراً إيجابياً، فأنت تعطي هؤلاء الناس ما لا يستطيعون الحصول عليه بمفردهم. وقد لا يشكّون أبداً في أنك تديرهم كما تدير البرغي تحت إبهامك. وإذا شعروا بذلك فقد لا يعبأون، لأنك تجعلهم يتمتعون بشعور أفضل عن أنفسهم. وهذا شيء جدير بأي ثمن.

المراعاة الخامسة

في سنة 1862، قام ملك بروسيا وليام بتسمية أوتوفون بسمارك رئيساً للوزراء ووزيراً للشؤون الخارجية. وكان بسمارك معروفاً بجرأته، وطموحه ـ واهتمامه بتقوية الجيش. وبما أن وليام كان محاطاً بالأحرار

في حكومته، ومجلس وزرائه، وهم سياسيون كانوا يريدون في الأصل تقييد سلطاته، فقد كان من الخطر عليه تماماً أن يضع بسمارك في هذ المركز الحساس، وقد حاولت زوجته أوغسطا أن تثنيه عن ذلك، ولكن على الرغم من أنها كانت في العادة تفرض رأيها عليه، فإن وليام أصرّ على موقفه في هذه المرة.

وبعد أسبوع واحد فقط من استلام هذا المنصب، ألقى بسمارك خطاباً في عدد من الوزراء لإقناعهم بالحاجة إلى توسيع الجيش. وختم بالقول: «إن المسائل الكبرى في عصرنا لن تُحْسَمَ بالخُطَبِ وقرارات الأغلبية، بل بالحديد والدم». وقد تم توزيع خطابه في جميع أنحاء ألمانيا على الفور. وقد صرخت الملكة في وجه زوجها بأن بسمارك ذو نزعة عسكرية همجية ينوي اغتصاب السيطرة على بروسيا، وأن على وليام أن يطرده. ووافق معها الأحرار في الحكومة. وكانت صرخة الاحتجاج من العنف بحيث بدأ وليام يخشى أن ينتهي به الأمر على المقصلة، مثل ملك فرنسا لويس السادس عشر، إذا استمر يحتفظ ببسمارك كرئيس للوزراء.

وكان بسمارك يعلم أنَّ عليه أن يصل إلى الملك قبل فوات الأوان. كما عَرَفَ بأنه قد أخطأ، وأنه كان عليه أن يضبط نغمة كلماته الناريّة ومع ذلك، فبينما كان يتأمَّل خطته الاستراتيجية قرَّر أن لا يعتذر، بل أن يفعل العكس تماماً. فقد كان يعرف الملك جيداً.

وعندما التقى الرجلان، كان وليام ـ كما هو متوقع ـ قد اهتاج بشدة تحت تأثير الملكة. فكرَّر خشيته من الموت بالمقصلة. ولكن بسمارك لم يزد على أن قال: «نعم، وعندئذ سنموت معاً! إننا لا بد أن نموت عاجلاً أم آجلاً، وهل هناك طريقة للموت محترمة أكثر؟ أنا سأموت مقاتلاً في سبيل قضية ملكي وسيدي. أما جلالتك فسوف تموت وأنت تُعمِّد بدمك حقوقك الملكية التي مَنَحَك إياها لطفُ الله. وسواء

أكان ذلك على المقصلة أم في ميدان المعركة فلا فرق في المغامرة بالجسد وبالحياة في سبيل الحقوق التي جاد بها لطف الله!». واستمر على هذه الشاكلة يناشد في وليام شعُورَهُ بالشرف وبجلال مركزه على رأس الجيش. فكيف يسمح الملك للناس بالتآمّر عليه؟ ألم يكن شرف ألمانيا أهم من المماحكة حول كلمات؟ وهكذا لم يكتفِ رئيس الوزراء بإقناع الملك أن يقف لزوجته ولبرلمانه بالمرصاد فحسب، بل أقنعه كذلك ببناء الجيش. وكان ذلك هو هدف بسمارك على طول الخطّ.

التفسير

كان بسمارك يعلم بأن الملك يشعر بأن مَنْ حوله يتنمَّرون عليه. وكان يعرف أن لوليام خلفيةً عسكرية، وإحساساً عميقاً بالشرف، وأنه كان يشعر بالخجل من تخاذله أمام زوجته وأمام حكومته. وكان وليام يتحرَّق سرّاً لأن يكون ملكاً عظيماً وقوياً. ولكنه لم يجرؤ على التعبير عن هذا الطموح لأنه كان يخشى أن ينتهي به الأمر مثلما انتهى بلويس السادس عشر. وبينما يخفي التظاهر بالشجاعة على الأغلب خوفَ الشخص ووَجَلَه، كان خوفُ وليام يخفي حاجَتَه إلى إظهار الشجاعة والدقّ على صدره.

وأحسَّ بسمارك بالتشوّق إلى المجد تحت واجهة وليام المسالمة، وهكذا استغلَّ شعور الملك بعدم الأمان حول رجولته. فدفعه في آخر الأمر إلى ثلاث حروب، وإلى خلق الإمبراطورية الألمانية. إن الوَجَلَ ضعفٌ يمكن استغلاله بشكل قوي فعَّال. فالأرواح الوجلة كثيراً ما تتشوَّق إلى عكس هذه الصفة، ـ إلى أن تكون كنابليون. ومع ذلك تنقصها القوة الداخلية. وتستطيع أنت من حيث الجوهر أن تكون نابليونها، فتدفعها إلى أعمال جريئة تخدم احتياجاتك بينما تجعلها معتمدة عليك أيضاً. تذكَّر: انظر إلى النقائض، وإياك أن تأخذ الظواهر بقيمتها الاسمية.

صورة: أداة التعذيب
اللولبية. عدوك لديه
أسرار يحرسها.
ويفكّر افكاراً لا
يكشفها ولكنها تظهر
بطرق لا يَدَ له فيها.
وهناك في مكانٍ مّا
شقٌّ من الضعف، على
رأسه، أو في قلبه، أو
فوق بطنه. وعند عثورك
على الشق ضع إبهامك
عليه وادِرْهُ كيفما شئت.

الشاهد: اكتشف أداة الضغط على كل شخص. إن ذلك هو فن تشغيل إراداتهم. وهو يحتاج إلى مهارة أكثر من حاجته إلى تصميم. ويجب أن تعرف أين يمكن الوصول إلى كل شخص للتأثير عليه. فكل إرادة لها دافع خاص يختلف حسب الذوق. فكل الرجال عَبَدَةُ أوثان، فبعضهم يعبد الشهرة، وبعضهم يعبد مصلحته الشخصية، ومعظمهم يعبد شهوته. وتتكوَّن المهارة من معرفة هذه الأوثان المعبودة لتشغيلها واستغلالها. فمعرفة الينابيع الرئيسية للحوافز يضع في يديك مفتاح إرادة الشخص.

(بلثازار غراسيان، 1601 ـ 1658)

الانقلاب

إن استغلال نقاط ضعف الناس فيه خطر واحد. إنك قد تثير عملاً لا تستطيع السيطرة عليه.

ففي ألعابك المتصلة بالسلطة، فإنك تنظر دائماً إلى عدة خطوات سلفاً، وتخطط بموجب ذلك ـ وأنت تستغل حقيقة كون الناس أكثر عاطفية وعجزاً عن الرؤية المسبقة البعيدة النظر. ولكن عندما تستغل نقاط ضعفهم، والمجالات التي ليس لهم عليها إلاّ أضعف السيطرة،

فإنك قد تطلق من العقال عواطفَ ربما قلبت خططك رأساً على عقب. إدفع الناس الوجلين إلى عمل جريء، وقد يشتطون؛ وعند تلبيتك لحاجتهم إلى الانتباه والاعتراف فقد يحتاجون إلى أكثر مما تريد أن تعطيهم. فالعنصر الطفولي الضعيف الذي تستغله قد ينقلب ضدك.

وكلما كان الضعف عاطفياً أكثر، زاد حجم الخطر المحتمل. فاعرف الحدود في هذه اللعبة إذن، ولا تجعل سيطرتك على ضحاياك تدير رأسك. فأنت تبحث عن السلطة، وليس عن التلذذ بالسيطرة.

القانون

34

كُن مَلَكِياً بطريقتك الخاصة: تصرَّف كَمَلِك لتُعامَل كَمَلِك

الحكم

إن الطريقة التي تتصرف بها كثيراً ما تكون هي التي تقرر الطريقةَ التي تُعامَلُ بها: ففي المدى الطويل يؤدي الظهور بمظهر الشخص الخشن الفظّ، أو العادي إلى إفقادك احترام الناس. إذ أن الملك يحترم نفسه، ويوحي للآخرين بالعاطفة نفسها. فتصرفك بأسلوب ملوكي وثقة بسلطاتك يجعلك تبدو مهيأً لِلَبْسِ التاج.

انتهاك القانون

في تموز سنة 1830، انفجرت في باريس ثورةٌ أرغمت الملك شارل العاشر على التنازل. فاجتمعت لجنة من أعلى السلطات في البلد لانتخاب خليفة له. فكان الرجل الذي انتقوه هو لويس فيليب، دوق أورليانز.

وكان واضحاً من البداية أن لويس فيليب سيكون طرازاً من الملوك مختلفاً، ليس لأنه متحدر من فرع مختلف من العائلة المالكة، ولا لأنه لم يرث التاج بل أعطته إياه لجنة، مما جعل شرعيته موضع تساؤل. بل لأنه كان يكره الاحتفالات وزخارف الملك؛ وكان له أصدقاء بين الصيارفة أكثر مما له بين النبلاء؛ ولم يكن أسلوبه هو خلق نوع جديد من الحكم الملكي، كما فعل نابليون، بل التقليل من أهمية مكانته، كي يختلط على نحو أفضل بالتجار والأهالي من الطبقة الوسطى الذين استدعوه للقيادة. وهكذا فإن الرموز التي ارتبطت بلويس فيليب لم تكن الصولجان ولا التاج، بل القبعة الرمادية والمظلة التي كان يمشي فيها باختيال في شوارع باريس كأنه برجوازي خارج في جولة للتنزُّه. وعندما وجه الدعوة إلى جيمس روتشيلد، أهم صيرفي في فرنسا لزيارته في قصره، عامله كندٍّ له. وعلى عكس أي ملك سبقه، فإنه لم يتحدَّث مع السيد روتشيلد عن التجارة والأعمال فحسب، بل كانت التجارة والأعمال هي كلّ حديثه حصراً بالمعنى الحرفي للكلمة، لأنه كان يحب المال، وقد كدَّس ثروة ضخمة.

إياك أن تفقد احترامك لنفسك، أو ترفع الكلفة معها أكثر من اللازم حتى وأنت وحيد. ولتكن نزاهتك نفسُها هي مقياس الاستقامة. وكن مديناً لقسوة حكمك على نفسك أكثر من اعتمادك على كل المفاهيم أو المبادىء الخارجية. وامتنع عن السلوك غير اللائق، وذلك بدافع فضيلتك نفسها بدلاً من الخوف من قيود السلطة الخارجية. انظر إلى نفسك بهيبة، ولن تحتاج إلى المعلم الذي ابتكره خيال [الشاعر الروماني] سينيكا.

بلثازار غراسيان، 1601 - 1658

ومع المسيرة البطيئة لعهد «الملك البرجوازي»، راح الناس يحتقرونه. فالأرستقراطية لم تكن تستطيع أن تتحمَّل مَلِكاً غير مَلَكِي، وفي غضون بضعة أعوام انقلبوا عليه. وفي تلك الأثناء، فإن الطبقة الفقيرة الآخذة في التنامي، بما فيها من المتطرفين الذين طاردوا شارل العاشر، لم تجد ما يرضيها في حاكم لا يتصرف كملك ولا يحكم كرجل من أبناء الشعب. أما المصرفيون الذين كان لويس فيليب مديناً لهم بالعرفان أكثر من الجميع، فسرعان ما أدركوا أنهم هم المسيطرون على البلد، وليس هو. فأخذوا يعاملونه باحتقار متزايد. وذات يوم، في بداية رحلة بالقطار نُظِّمَت للعائلة المالكة وَبَّخَهُ جيمس روتشيلد بالفعل، وعلى رؤوس الأشهاد، بسبب تأخره. كان الملك ذات مرة قد خلق خبراً لافتاً للأنظار بمعاملته الصيرفيّ كَنِدٍّ له؛ أما الآن فإن الصيرفيَّ راح يعامل الملك كشخص دونه منزلةً.

وفي آخر المطاف عادت إلى الظهور تمردات العمال التي كانت قد أطاحت بِسَلَفِ لويس فيليب. فقمعها الملك بالقوة. ولكن ما الذي كان الملك يدافع عنه بهذه الوحشية؟ ليس المؤسسة الملكية، التي كان يحتقرها، ولا الجمهورية الديمقراطية، التي كان حكمه يمنعها. وهكذا فقد بدا أن ما كان يدافع عنه في الحقيقة هو ثروته وثروة الصيارفة ـ ولم تكن هذه طريقةً تلهم مواطنيه الولاء له.

ففي أوائل سنة 1848، شرع الفرنسيون من كل الطبقات يتظاهرون للمطالبة بإصلاحات انتخابية، تجعل البلد ديمقراطياً حقاً. وبحلول شباط/ فبراير من تلك السنة، كان المتظاهرون قد صاروا عنيفين. ولتخفيف سخط السكان، طرد لويس فيليب رئيسَ وزرائه وعيَّن بدلاً عنه شخصاً من الأحرار. ولكن ذلك أدى إلى عكس النتيجة المتوخّاة: فقد شعر الناس أنهم يستطيعون التآمر على الملك. فتحوَّلت المظاهرات إلى ثورة كاملة، برصاص البنادق، والمتاريس في الشوارع.

وفي ليلة 23 شباط/ فبراير، طوَّق القصرَ حشدٌ من الباريسيين.

وبطريقة مفاجئة أدهشت الجميع، تنازل لويس فيليب في تلك الأمسية نفسها وهرب إلى إنكلترا، فلم يترك خليفةً، ولا حتى توصية بأحد ـ بل إن حكومته بأكملها طوت حقائبها وانحلَّت مثل سيركٍ جوَّال يغادر المدينة.

التفسير

لقد تعمَّد لويس فيليب أن يبدِّد الهالة التي تحيط بالملوك والقادة بصورة طبيعية. فقد سخر من رموز العظمة، لاعتقاده بأن عالماً جديداً كان آخذاً في الشروق ينبغي فيه على الحكَّام أن يتصرَّفوا ويكونوا مثل المواطنين العاديين. وكان على حق. فقد كان هناك عالم قادم بالتأكيد، بدون ملوك ولا ملكات. غير أنه كان مخطئاً خطأً عميقاً في تنبّئه بتغيّر في آليات حركة السلطة.

وفي بداية الأمر كانت قبعة الملك ومظلته تسليان الفرنسيين ولكنهما سرعان ما صارتا مزعجتين. كان الناس يعرفون أن لويس فيليب ليس، في الواقع، مثلهم على الإطلاق. وأن القبعة والمظلة كانتا، من حيث الجوهر، نوعاً من الخدعة لتشجيعهم على التخيّل بأن البلد أصبح فجأة أكثر مساواة. غير أن الواقع هو أن فوارق الثروة لم تكن أعظم مما كانت عليه آنذاك. وكان الفرنسيون يتوقعون أن يكون في حاكمهم شيء من خصال رجل الاستعراضات، وأن يكون له حضور. فحتى المتشدِّد روبسبير، الذي وصل إلى السلطة زمناً قصيراً أثناء الثورة الفرنسية، كان يتفهم ذلك. ومن المؤكد أن نابليون، الذي حوَّل الجمهورية الثورية إلى نظام إمبراطوري، كان يعرف ذلك في أعماقه. والحق أن الفرنسيين كشفوا عن رغبتهم الحقيقية، حالما هرب لويس فيليب عن المسرح، فانتخبوا حفيد شقيق نابليون رئيساً. ولم يكن معروفاً من الناحية العملية، ولكنهم كانوا يأملون أن يعيد خلق الهالة القوية لذلك القائد الكبير، نابليون، ليمسح بذلك الذكرى البشعة «للملك البرجوازي».

قد يقع الناس الأقوياء في إغراء اصطناع هالة الرجل العادي،

محاولين أن يخلقوا الوهم بأنهم متماثلون بشكل أساسي مع رعاياهم أو مرؤوسيهم. ولكن الناس الذين يُقْصَدُ من هذه الإشارة الزائفة أن تثير إعجابهم يكشفون حقيقتها بسرعة، فيفهمون أنهم لا يُعْطَوْنَ مزيداً من السلطة، وأنه يظهر فقط أنهم مشاركون في مصير الرجل القوي ذي السلطة، فالنوع الوحيد الذي يمكن أن ينجح من مثل هذه الإشارات لعامة الناس هو النوع الذي اصطنعه فرانكلين روزفلت، وهو أسلوب يقول إن الرئيس يشاطر عامة الناس قِيَمَهُمْ وأهدافهم حتى مع بقائه من النخبة الراقية في أعماقه. ذلك أنه لم يتظاهر قطّ بإلغاء المسافة التي تفصله عن الجمهور.

فالقادة الذين يحاولون تذويب المسافة عن طريق التودُّد المزيَّف يفقدون بالتدريج قدرتهم على الإيحاء بالولاء أو الخوف أو الحب، وبدلاً من ذلك يستدرجون الاحتقار. فهم مثل لويس فيليب عديمو الإلهام إلى درجة أنهم غير جديرين حتى بالمقصلة. وأفضل ما يستطيعون عمله هو الاختفاء ببساطة في ظلام الليل، كأنْ لم يَغْنَوْا بالأمس.

مراعاة القانون

عندما كان كريستوف كولومبوس، يبحث عن تمويل لرحلته الأسطورية، كان كثيرون، ممن حوله، يعتقدون أنه متحدر من الأرستقراطية الإيطالية. وقد تم تمرير هذا الرأي إلى التاريخ، عن طريق سيرة حياة بعد وفاة المستكشف كتبها ابنه، فوصفه فيها بأنه من نسل الكونت كولومبو، من قلعة كوكارو في منطقة مونتفيرات. وقد قيل عن كولومبوس بدوره إنه من نسل القائد الروماني الأسطوري كولونيوس، وإن اثنين من أبناء عمومته الأقربين كان المفروض أنهما يتحدران مباشرة من أحد أباطرة القسطنطينية. وهذه خلفية لامعة حقاً. ولكنها لم تكن أكثر من خيال لامع، لأن كولومبوس كان، في الواقع، ابن دومينيكو كولومبو، الحائك المتواضع الذي فتح دكاناً للمشروبات عندما كان

هيبوقليدس في سيسيون

وفي الجيل التالي، صارت العائلة أكثر شهرة من ذي قبل من خلال الامتياز التكريمي الذي أضفاه عليها كليستينيز، حاكم سيسيون. وكانت له ابنة . . . هي آغاريستا، التي أراد أن يزوجها من أفضل رجل في اليونان. وهكذا أذاع إعلاناً عاماً أثناء الألعاب الأولمبية، التي كان قد فاز فيها بسباق العربات، وكان مؤدّى ذلك الإعلان أن أيّ إغريقي يرى نفسه صالحاً لمصاهرة كليستينيز عليه أن يقدّم نفسه في سيسيون في

كولومبوس شاباً، والذي كان يحصل على معيشته بعد ذلك من بيع الجبن.

وكان كولومبوس نفسه هو الذي خلق الأسطورة عن خلفيته، لأنه كان يشعر منذ وقت مبكر بأن القدر قد اختاره من بين الناس لتحقيق أشياء عظيمة، وأنه يحمل في دمه نوعاً من الخصال الملوكية. وبناء على ذلك فقد كان يتصرَّف وكأنه متحدِّر فعلاً من أصول نبيلة. وبعد حياة عملية خالية من الأحداث كتاجر على مركب تجاري، استقر كولومبوس، الذي هو في الأصل من جنوا، في مدينة لشبونة. واستخدم قصة ملفقة عن خلفيته النبيلة، فتزوَّج من أسرة لشبونية عريقة لها اتصالات ممتازة بالأسرة البرتغالية المالكة.

وعن طريق أنسبائه، دبَّر بطرق ملتوية اجتماعاً مع ملك البرتغال، خوياو الثاني، وقدَّم له طلباً بتمويل رحلة متجهة غرباً بهدف اكتشاف طريق أقصر إلى آسيا. وفي مقابل الإعلان بأن أي اكتشافات تتحقق ستتم باسم الملك، كان كولومبوس يريد سلسلة من الحقوق: لقب الأميرال الأكبر للبحر المحيط؛ ومنصب نائب الملك في أية أراضٍ يكتشفها؛ وعشرة بالمائة من التجارة مع مثل هذه الأراضي في المستقبل؛ على أن تكون هذه الحقوق جميعاً وراثية وإلى الأبد. قدَّم كولومبوس هذه المطالب رغم أنه لم يكن في السابق سوى تاجر. وكان لا يكاد يفقه شيئاً عن الملاحة، فلم يكن يستطيع تشغيل رُبْعِيَّة (أداة ملاحية لقياس الارتفاع تتألف من قوس مقسم إلى تسعين درجة)، ولم يكن قد قاد مجموعة من الرجال قطّ. وباختصار: لم تكن لديه أية مؤهلات على الإطلاق للرحلة التي كان يقترحها. وبالإضافة إلى ذلك، لم يتضمن طلبُهُ أية تفاصيل عن كيفية تنفيذ خططه، إذ لم يكن فيه سوى وعود غامضة.

وعندما انتهى كولومبوس من إعلانه، ابتسم خوياو الثاني: ورفض العرض بأدب، ولكنه ترك الباب مفتوحاً للمستقبل. وهنا لا بد أن كولومبوس قد لاحظ شيئاً لن ينساه أبداً. فحتى عندما كان الملك يرفض

غضون ستين يوماً ـ أو قبل ذلك إن شاء ـ لأن كليـتينيز ينوي ـ في غضون عام بعد اليوم الستين ـ أن يعقد قران ابنه على زوجها المقبل. وقد أمر بإقامة مضمار للسباق وحلبة للمصارعة خصيصاً لهذا الغرض. وفي الحال بدأ الخاطبون في الوصول، وفيهم كل إغريقي الجنسية يملك شيئاً يفخر به في بلده أو في نفسه... وبدأ كليـتينيز بالطلب [من كل واحد من الخاطبين العديدين] أن يذكر اسم بلده ونسب عائلته، ثم استضافهم في بيته لمدة عام، كي يتعرَّف عليهم جيداً، وكان يفتح معهم حديثاً، أحياناً بشكل فردي، وأحياناً بشكل جماعي، ويختبر كلاً منهم بشأن خصائص رجولته، وطبعه، ومزاجه، وثقافته، وسلوكه... ولكن أهم اختبار من بينها كان اختبار سلوكهم على مائدة العشاء. وقد استمر هذا كله طيلة مدة بقائهم في سيـيون، وقد ظل يظهر لهم كرم ضيافته على الدوام. ولسبب أو لآخر أعجبه اثنان من سكان أثينا. ومن هذين الاثنين كان المفضل لديه هو هيبوقليدس بن تيـاندر. وأخيراً حلّ اليوم المحدد لعقد القران، الذي يتعين فيه على كليـتينيز أن يعلن اختياره. فأحيا ذلك اليوم بالتضحية بمائة ثور، وأقام حفلة عظيمة لم تقتصر الدعوة فيها على الخاطبين، بل شملت كل وجيه معروف في سيـيون. وعندما انتهى العشاء، بدأ الخاطبون يتنافسون في الموسيقى

طلبات البحَّار، فقد عاملها على أنها مشروعة. فلم يضحك على كولومبوس، ولا تساءل عن خلفيته وأوراق اعتماده. والواقع أن الملك قد أعجب بجرأة مطالب كولومبوس وكان واضحاً أنه مرتاح بصحبة رجل يتصرف بمثل هذه الثقة. ولا بد أن الاجتماع قد أقنع كولومبوس بأن غرائزه كانت مُحِقَّة: فبمطالبته بالقمر، رفع مكانته على الفور، لأن الملك افترض أن رجلاً يضع لنفسه مثل هذا الثمن لا بد أنه جدير به بطريقة مّا، إلاَّ إذا كان مجنوناً. ولم يظهر على كولومبوس أنه مجنون.

وبعد بضع سنين انتقل كولومبوس إلى إسبانيا. فاستخدم اتصالاته البرتغالية ليتحرك في دوائر عليا في البلاط الإسباني، حيث تلقى مساعدات من ممولين مشهورين، وجلس على موائد الدوقات والأمراء. ولجميع هؤلاء كرَّر طلبه لتمويل رحلة إلى الغرب ـ وطالب أيضاً بالحقوق التي طلبها من خوياو الثاني. وكان بعضهم، مثل دوق مادينا القوي، يريدون المساعدة، ولكنهم لم يستطيعوا، إذ كانت تنقصهم السلطة لمنحه الألقاب والحقوق التي يريدها. ولكن كولومبوس لم يتراجع. وسرعان ما أدرك أن هناك شخصية واحدة قادرة على تلبية طلباته، وهي الملكة إيزابيللا. وفي سنة 1487، تمكَّن في آخر الأمر من تدبير لقاء مع الملكة. ورغم أنه لم يستطع إقناعها بتمويل الرحلة، فقد سحرها تماماً وصار من الضيوف الكثيري التردد على القصر.

وفي سنة 1492، قام الإسبان في آخر الأمر بإجلاء الفاتحين العرب الذين كانوا قد استولوا على أجزاء من البلد قبل ذلك بقرون عديدة. ومع زوال عبء الإنفاق الحربي عن الخزينة، شعرت إيزابيللا أنها تستطيع أخيراً أن تستجيب لطلبات صديقها المستكشف كولومبوس. فقرَّرت تمويل ثلاث سفن بتجهيزاتها، ورواتب بحَّارتها، ومعاش متواضع لكولومبوس. والأهم من ذلك أنها نظَّمت عقداً منحته فيه الألقاب والحقوق التي كان يصرّ عليها. وكان الشيء الوحيد الذي حرمته إياه ـ وفي ثنايا التفاصيل الدقيقة للعقد فقط ـ هو العشرة بالمائة من عائدات

وفي الحديث أمام الآخرين. وفي هذين المجالين كليهما كان هيروقليدس هو الذي أثبت أنه أشجع بطل. وفي آخر الأمر، بعد تناول المزيد من الشراب، طلب من عازف الناي أن يعزف له لحناً وشرع يرقص على إيقاعه. ولعله رقص حتى أرضى نفسه. غير أن كليستينيز الذي كان يراقب أداءه، بدأت تخامره شكوك خطيرة حول الأمر كله. وعلى الفور، بعد توقف قصير، أرسل هيروقليدس في طلب طاولة؛ فلمّا جيء له بها صعد إليها، فأدّى أولاً بعض رقصات من لاكونيا، ثم من آتيكا، وانتهى به الأمر إلى الوقوف على رأسه، وضبط الإيقاع بتحريك ساقيه في الهواء. ولقد كانت تلك الرقصات سيئة بما فيه الكفاية. ولكن كليستينيز ضبط نفسه واستطاع أن يتجنب الانفجار، رغم أنه كره فكرة أن يكون لديه صهر كهذا. ولكنه عندما رأى هيروقليدس يستمر في ضرب الهواء بساقيه مع حركة الإيقاع لم يعد يستطيع التحمل. فصاح: «يا ابن تيساندر، لقد أبعدت برقصك هذا احتمال زواجك».

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس قبل الميلاد

أية أراضٍ يكتشفها: إذ كان طلباً سخيفاً، لأنه لم يرد وضع حد زمني له (ولو بقي هذا الشرط في العقد لكانت نتيجته جعل كولومبوس وورثته أغنى أسرة على هذا الكوكب. ولم يكن كولومبوس يقرأ التفاصيل الدقيقة أبداً).

وعندما رضي كولومبوس عن تلبية شروطه أقلع بسفنه في تلك السنة نفسها (1492) بحثاً عن الممرّ إلى آسيا (وقبل المغادرة حرص على استئجار أفضل ملاَّح استطاع العثور عليه لمساعدته على الوصول إلى هناك). وقد فشلت البعثة في العثور على مثل ذلك الممرّ. ومع ذلك فعندما قدَّم كولومبوس طلباً للملكة لتمويل مشروع رحلة أكثر طموحاً من الرحلة الأولى، في السنة التالية (1493)، وافقت. إذْ أنها كانت قد بدأت ترى أن كولومبوس مقدَّر له أن يحقق أشياء عظيمة.

التفسير

كان كريستوف كولومبوس كمستكشفٍ، متوسط القدرة على أفضل تقدير. فكان يعرف عن البحر أقلّ ممّا يعرفه البحَّار العاديّ المتوسِّط على سفنه. ولم يكن قادراً قطّ على تحديد خطوط الطول ودوائر العرض لمكتشفاته. وكان يظن الجزرَ قارَّاتٍ شاسعة. وكان يسيء معاملة طواقم سفنه. ولكنه في مجال واحد كان عبقرياً: كان يعرف كيف يبيع نفسه، وإلاَّ فكيف يمكن توضيح الطريقة التي استطاع بها، ابن بائع الأجبان، والتاجر البحريّ ذو المستوى المنخفض، أن يتقرَّب من أعلى الأسر المالكة والأرستقراطية ويفوز بالحظوة لديها؟

وكانت لكولومبوس قدرة مذهلة على أن يفتن النبلاء ويسحرهم. وكانت كلها ناجمة عن الطريقة التي يتصرَّف بها. فقد كان يبرز شعوراً بالثقة لا يتناسب إطلاقاً مع إمكانياته. ولم تكن ثقته محاولة عدوانية قبيحة لترويج نفسه كمُحْدَثِ نعمة ـ بل كانت ثقة بالنفس هادئة رزينة. والواقع أنها كانت ذات الثقة التي يعرضها النبلاء في العادة عن أنفسهم. فالأقوياء ذوو الطراز الأرستقراطي القديم لم يكونوا يشعرون بالحاجة إلى

إثبات أنفسهم أو توكيدها؛ فلأنهم نبلاء، كانوا يعرفون أنهم يستحقون أكثر على الدوام، وكانوا يطالبون بذلك. وإذن فقد شعروا بنوع من القرابة الفورية مع كولومبوس، لأنه كان يتصرَّف على غرارهم بالضبط. مرتفعاً فوق جمهور العامّة، ومقدَّراً له التوجه إلى عظائم الأمور.

إفهم: إنه ضمن سلطتك أن تحدِّد ثمنك بنفسك. فالطريقة التي تتصرَّف بها تعكس ما تعتقده بنفسك. فإن طلبت ثمناً قليلاً، فحرِّك قدميك وطأطىء رأسك. وسيفترض الناس أن ذلك يعكس شخصيتك. ولكن هذا السلوك ليس أنت ـ بل هو فقط الطريقة التي اخترتَ أن تقدِّم بها نفسك للناس الآخرين. ويمكنك بكل سهولة أن تقدِّم واجهة كولومبوسية: من الابتهاج، والثقة، والشعور بأنك مولود كي تلبس تاجاً.

> عند كل المخادعين الكبار هناك حدث جدير بالاهتمام هم مدينون له بسلطتهم. ففي عمل الخداع الفعلي تتغلب عليهم ثقتهم بأنفسهم. وهذه الثقة هي التي تتحدث بصورة معجزة وملزمة لمن هم حولهم.
>
> (فردريك نيتشه، 1844. 1900)

مفاتيح السلطة

نبدأ حياتنا كأطفال، بكثير من الحماس والمرح والحيوية، متوقعين كل شيء من الدنيا، ومطالبين بكل شيء. ويستمر هذا بصورة عامة في أول غزواتنا في المجتمع، حالما نبدأ حياتنا العملية. ولكن مع تقدمنا في السن، فإن حالات الصدّ والفشل التي نتعرَّض لها تقيم حدوداً لا تزداد مع الزمن إلاَّ صلابة. فنبدأ في توقع أشياء أقل من الدنيا، ونقبل حدوداً هي في الواقع أشياء فرضناها على أنفسنا. ونبدأ في الانحناء، وتحية الآخرين باحترام، والاعتذار حتى عن أبسط المطالب. والحلّ إزاء هذه الآفاق المتقلّصة، هو أن نتعمَّد إرغام أنفسنا على الذهاب في الاتجاه المعاكس، وأن نقلِّل من أهمية حالات الفشل ونتجاهل الحدود المقيِّدة،

وأن نجعل أنفسنا نطالب بما يطالب به الطفل، ونتوقع الكثير كما يتوقع الطفل. ولتحقيق ذلك يجب أن نستخدم استراتيجية خاصة على أنفسنا. ولْنُسَمِّها استراتيجية التاج.

وتقوم استراتيجية التاج هذه على سلسلة بسيطة من الأسباب والنتائج. فإذا آمنَّا أننا مقدَّرٌ لنا الإتيان بأشياء عظيمة، فإن هذا الإيمان يشعّ إلى الخارج، تماماً كما يخلق التاج هالة حول الملك. فهذا الإشعاع الخارجيّ يُعْدي الناس من حولنا، إذْ أنهم سيعتقدون أنه لا بدَّ أن لنا أسباباً تجعلنا نشعر بالثقة إلى هذا الحدّ. فالذين يرتدون التيجان لا يبدو أنهم يشعرون بإحساس داخلي بالقيود التي تحدِّد ما يستطيعون أن يطلبونه، أو ما يقدرون على تحقيقه. فهذا يشع إلى الخارج كذلك. فتختفي الحدود والقيود. استخدم استراتيجية التاج وسيدهشك عدد المرات التي ستثمر فيها. وخذ مثلاً أولئك الأطفال السعداء الذين يطلبون كل ما يريدون، ويحصلون عليه. فتوقعاتهم الكبرى هي سرّ سحرهم وجاذبيتهم. والبالغون يتمتعون بمنحهم ما يرغبون به. تماماً كما تمتعت إيزابيللا بتلبية رغبات كولومبوس.

وطوال التاريخ كان هناك أناس من منابت غير متميزة ـ أمثال ثيودورا البيزنطية، وكولومبوس، وبيتهوفن، ودزرائيلي. استطاعوا أن يتدبَّروا أمر تشغيل استراتيجية التاج وهم يؤمنون في صلابة بعظمتهم إلى درجة أنها تصبح نبوءة تحقِّق ذاتها. والسرّ في ذلك بسيط: فليغلب عليك إيمانك بنفسك. وحتى عندما تعلم أنك تمارس على نفسك نوعاً من خداع الذات، تصرَّف كملك. فمن المحتمل أن تُعامَلَ كملك.

وقد يفصلك التاج عن الناس الآخرين. ولكن جعل ذلك الفصل حقيقياً شيء يعود إليك: إن عليك أن تتصرَّف بشكل مختلف، مُبَيِّناً المسافة التي تفصلك عمَّن حولك. ومن طرق توكيد اختلافك عنهم أن تتصرَّف دائماً بوقار وكرامة، مهما كانت الظروف. فلويس فيليب لم يعطِ أي إحساس بأنه مختلف عن الآخرين ـ بل كان ملكاً صيرفياً. وفي

اللحظة التي هدَّده فيها رعاياه، انهار. وقد أحسَّ الجميع بذلك فانقضّوا. ونظراً لأن لويس فيليب كانت تنقصه الكرامة الملكية وصلابة القصد، فقد بدا كأنه مُدَّعٍ فتم إسقاط التاج من على رأسه بسهولة.

وينبغي عدم الخلط بين التصرف الملكي وبين الغطرسة. فقد تبدو الغطرسة حقاً من حقوق الملك، ولكنها في الواقع تشير إلى انعدام الأمن. إنها النقيض الكامل للسلوك الملوكي.

إن هيلا سيلاسي، الذي حكم إثيوبيا أربعين عاماً، بدءاً من سنة 1930، كان ذات مرة شاباً يدعى ليج طافاري. وكان ينحدر من أسرة ملكية، ولكن لم تكن أمامه فرصة حقيقية للوصول إلى السلطة، لأن مكانته كانت منخفضة على سلّم خلافة الملك الذي كان على العرش آنذاك، مينيليك الثاني. ومع ذلك فقد أظهر منذ سنٍّ مبكرة ثقةً بالنفس وتصرفاً ملكياً لائقاً أدهش الذين حوله جميعاً.

ففي سن الرابعة عشرة، ذهب طافاري ليعيش في البلاط، فأثار إعجاب مينيليك على الفور وصار صاحب حظوة عنده. فقد أَنْشَدَهَ الملك برباطة جأش طافاري تحت النار، وصبره، وثقته الهادئة بنفسه. أما النبلاء الآخرون الشباب، بغطرستهم، وصخبهم المتبجح، وحسدهم فكانوا يتأمَّرون على هذا المراهق الضئيل الحجم المعتمد على الكتب والنظريات. ولكنه لم يغضب أبداً ـ فالغضب سيكون علامة انعدام الشعور بالأمن، وهو ما لا يريد أن ينحدر إليه. فقد كان هناك أناس حوله يشعرون بأنه سيصعد إلى القمة ذات يوم، لأنه كان يتصرَّف كما لو كان قد وصل إلى القمة.

وبعد سنوات، في سنة 1936، عندما احتلَّ الفاشيون الإيطاليون إثيوبيا، وكان طافاري في المنفى ـ وقد صار اسمه هيلا سيلاسي ـ ألقى خطاباً في عصبة الأمم دفاعاً عن قضية بلده. فضايقه الإيطاليون الذين كانوا بين المستمعين بالشتائم البذيئة، ولكنه حافظ على موقفه المتمسك بكرامته وترفّعه، وكأنه لم يتأثر بذلك أبداً. فرفعه هذا الموقف وجعل

أعداءه يَظْهَرون أشدّ قبحاً. فالترفع يظل في الواقع هو القناع الذي ينبغي استخدامه تحت الظروف الصعبة: إذْ أنه يعطي الانطباع بأنه لا يمكن أن يؤثر فيك شيء، وكأن لديك كل الوقت في العالم لتردّ على مهل. فهذا موقف قوي للغاية.

وللسلوك الملوكي استخدامات أخرى. فقد كان فنانو النصب والاحتيال يعرفون منذ زمن طويل قيمة الواجهة الأرستقراطية؛ فهي إمّا أن تنزع سلاح الناس وتجعلهم أقل تشكّكاً، أو أنها ترهبهم وتجعلهم يتخذون موقف الدفاع ـ وكما كان الكونت فكتور لاستيغ يعلم، إذْ أنَّك عندما تجعل مغفلاً يتخذ موقف الدفاع فإنك تحكم عليه بالسقوط. وكان رجل الأحابيل يَالُوكِيدْ أيضاً كثيراً ما يتخذ بهرجات وزركشات لرجل غني، ومعها موقف عدم المبالاة. فكان يشير إلى طريقة سحريةٍ مّا لتنمية الأموال ثم يقف مترفعاً، كالملك، ينضح بالثقة وكأنه في الحقيقة ذو ثروة خرافية، بحيث يتوسل المغفلون لمشاركته كي تتاح لهم فرصة الحصول على نصيب من الثروة التي كان يعرضها عليهم بمثل هذا الوضوح.

وأخيراً، فلتعزيز الأحابيل النفسية الداخلية المنطوية ضمن إبراز السلوك الملكي، هناك خطط استراتيجية لمساعدتك على خلق التأثير. وأولها استراتيجية كولومبوس: قدّم طلباً جريئاً على الدوام. ضع لنفسك ثمناً مرتفعاً ولا تتردَّد.

وثانياً: توجه بطريقة مترفعة إلى أعلى شخص في المبنى. فإن ذلك يضعك مباشرة على المستوى نفسه مع الموظف التنفيذي الكبير الذي تستهدفه. إنها استراتيجية داوود وجالوت (غولايات): إذ أنك باختيارك خصماً عظيماً، تعطي عن نفسك انطباعاً بالعظمة.

وثالثاً: قدِّم هدية من نوعٍ مّا لمن هم فوقك. وهذه سياسة الذين لديهم راعٍ. فبإعطاء راعيك هديّة فإنك من حيث الجوهر تقول له إنكما متساويان. إنها لعبة التحايل القديمة، أنْ تعطي لكي تأخذ. فعندما أراد بيترو آريتينو، كاتب عصر النهضة، أن يجعل دوق مانطوا راعيه التالي،

كان يعرف أنه إذا تصرَّف كعبد خاضع ذليل فإن الدوق سيظنه تافهاً؛ وهكذا اقترب من الدوق بالهدايا، وفي هذه الحالة كانت الهدايا لوحات من عمل صديق الكاتب، تيزيانو فيشيللي تِتْيان (1487. 1576)، أحد أعظم رسامي عصر النهضة، فأدَّى قبول الهدايا إلى خلق نوع من المساواة بين الدوق والكاتب. وتمت إراحة الدوق بإشعاره أنه يتعامل مع رجل من طابعه الأرستقراطي ذاته. وهكذا موَّل آريتينو بسخاء. فاستراتيجية الهدايا ذكية وألمعيّة، لأنك لا تستجدي. بل أنت تطلب المساعدة بطريقة مترفّعة توحي بالمساواة بين شخصين، وكل ما هنالك أن أحدهما يتصادف أن معه مالاً أكثر.

تذكَّر: إن تحديد ثمنك أمر متروك لك. اطلب ثمناً أقلّ، وسيكون ذلك هو ما تحصل عليه بالضبط. غير أنك إذا طلبتَ أكثر، فإنك ترسل إشارة بأنك جدير بفدية ملك. وحتى أولئك الذين يرفضون طلبك يحترمونك على ثقتك بنفسك. وسيثمر هذا الاحترام في نهاية الأمر بطرقٍ لا تستطيع تخيُّلها.

صورة: التاج. ضعه على رأسك، وسوف تتخذ موقفاً مختلفاً - موقفاً هادئاً ومع ذلك فإنه يشع بالثقة المطمئنة. وإياك أن تظهر شكّاً أو أن تفقد كرامتك تحت التاج، وإلاَّ فإنه لن يعود مناسباً لمقاسك. وسوف يبدو مقدراً لمن هو أجدر منك. ولا تنتظر تتويجاً. فأعظم الأباطرة يتوَّجون أنفسهم.

الشاهد: ينبغي على كل شخص أن يكون ملوكياً بطريقته الخاصة. دع أعمالك في جوِّها نفسه تكون جديرة بملك، حتى ولو لم تكن أعمالاً ملوكية. كن سامياً في أعمالك، شاهقاً في أفكارك. وفي كل ما تقوم به، أظهر أنك تستحق أن تكون ملكاً حتى لو لم تكن كذلك في الحقيقة.

(بلثازار غراسيان، 1601. 1658)

الانقلاب

إن الفكرة الكامنة وراء اتخاذ سمت الثقة الملوكية هو فصل نفسك عن الناس الآخرين. ولكنك إذا أفرطت في ذلك فإنه سيكون نهايتك. وإياك أن تخطىء بالاعتقاد أنك ترفع نفسك بإذلال الناس. فليس الشموخ فوق الجمهور بارتفاع مفرط فكرةً حسنةً أبداً ـ إذ أنك تجعل نفسك هدفاً سهلاً. وهناك أوقات يكون فيها اتخاذ موقف أرستقراطي خطراً بارزاً.

ففي أربعينات القرن السابع عشر، واجه شارل الأول، ملك إنكلترا، سخطاً عاماً عميقاً على الملكية كمؤسسة. فقد انفجرت الثورة في طول البلاد وعرضها، بقيادة أوليفر كرومْوِيلْ. ولو استجاب شارل لروح العصر برؤية متعمقة، فأيَّد الإصلاحات، وأظهر أنه يضحِّي ببعض سلطته، لاختلف التاريخ. وبدلاً من ذلك، انقلب إلى موقف أكثر ملوكية، فقد بدا شديد الغضب من الهجوم على سلطته، وعلى مؤسسة الملكية الإلهية المصدر. فأهان الناسَ بتصلّبه الملوكي، وحثّهم ذلك على الاستمرار في ثورتهم. وفي خاتمة المطاف فَقَدَ شارل رأسه، حرفياً.

إفهم: إنك تشعّ ثقةً، لا غطرسة ولا احتقاراً.

وأخيراً: فإنه صحيح أنك تستطيع أحياناً أن تحصل على شيء من السلطة من خلال اصطناع نوع من الخشونة الجافية، التي سوف تثبت أنها مسلية بتطرفها. ولكن مدى كسبك لهذه اللعبة بتجاوز الحدود، وفصل نفسك عن الآخرين بالظهور بأنك أخشن منهم وأشد غلاظةً، ينبغي أن لا يُنسيك أنها لعبة خطرة: فسيكون هناك دائماً أناس أخشن منك. وسوف يُسْتَبْدَلُ بك بسهولة في الموسم التالي شخصٌ أصغر سناً، وأسوأ.

القانون

35

اتقن فنّ التوقيت

الحكم

إياك أن تبدو مستعجلاً ـ فالعَجَلةُ تفضح نقصاً في سيطرتك على نفسك، وعلى الزمن. إظهر صبوراً دائماً، كأنك تعرف أن كل شيء سيكون مرجعه إليك في آخر المطاف. وتَحَرَّ اللحظة المناسبة. وتحسَّس روح العصر، والاتجاهات التي ستحملك إلى السلطة. تعلَّم أن تقف على حدة عندما لا يكون الوقت قد نضج بعدُ، وأن تضرب ضربتك بشدة عندما تصل الثمرة إلى النضوج.

مراعاة القانون

بدأ جوزيف فوشيه حياته العملية كمدرسٍ فرنسيٍّ في الثانويات الدينيّة غريب الأطوال يصعب وصفه، متجوّلاً من مدينة إلى مدينة طيلة القسم الأكبر من عقد الثمانينات في القرن الثامن عشر، يدرس الرياضيات للصبيان والفتية الصغار. ومع ذلك فإنه لم يلزم نفسه بالكنيسة إلزاماً كاملاً، ولم يقسم اليمين كقسيسٍ أبداً ـ فقد كانت لديه خطط أكبر من ذلك. فَانتظرَ فرصتَهُ وأبقى خياراته مفتوحة. وعندما انفجرت الثورة الفرنسية سنة 1789، لم يعد فوشيه ينتظر. فتخلص من جلبابه الكَنَسِيّ، وأطال شعره، وأصبح ثَوْرِيّاً. فقد كانت هذه روح العصر. فإذا فاته القارب في هذه اللحظة الحرجة فإن ذلك سيعني كارثة. ولم يُضِعْ فوشيه الفرصة. فصادق الزعيم الثوري روبسبير وصعد بسرعة في مراتب الثوار. وفي سنة 1792، انتخبته مدينة نانتز ممثلاً لها في المؤتمر الوطني (الذي أُوجِدَ في ذلك العام لتأطير دستور جديد للجمهورية الفرنسية).

وعندما وصل فوشيه إلى باريس ليتخذ مقعده في المؤتمر، كان انشقاق عنيف قد وقع بين اليعاقبة المعتدلين والمتطرفين. وشعر فوشيه أنه لن يخرج أي من الطرفين منتصراً في المدى الطويل. فالسلطة نادراً ما ينتهي بها الأمر في أيدي الذين يبدأون ثورة، ولا حتى في أيدي الذين يطورونها؛ بل إن السلطة تلتصق بالذين يوصلونها إلى نتيجة. وكان ذلك هو الطرف الذي أراد فوشيه أن يكون فيه.

درس سرتوريوس

وراحت قوة سرتوريوس تتزايد بسرعة، لأن جميع القبائل بين الإيبرو والبيرانيس جاءت لتنضم إليه، وتقاطرت إليه القوات من كل حدب وصوب. غير أنه كان منزعجاً من انعدام الانضباط وكثرة الثقة المفرطة في صفوف هؤلاء البرابرة الواصلين الجدد، الذين راحوا يصرخون عليه بضرورة مهاجمة العدوّ، فلم يكن لهم صبر على خطواته التكتيكية التأجيلية. ولذلك حاول أن يكسبهم إلى جانبه بالنقاش. ولكنه عندما رأى أنهم ساخطون، ومصرّون على مطالبهم بصرف النظر عن الظروف، تركهم يجربون حظهم وسمح لهم بالاشتباك مع العدو، على أمل أن يتلقوا هزيمة قاسية، دون أن يتعرضوا للسحق الكامل، لعل ذلك يجعلهم أميل إلى إطاعة أوامره في المستقبل. فحدث الأمر كما توقع، فتوجه سرتوريوس لإنقاذهم، وشكّل نقطة تجمع للهاربين، واقتادهم إلى معسكره بسلام. فكانت خطوته التالية هي إحياء

كان إحساسه بالتوقيت خارقاً. فقد بدأ كمعتدل، لأن المعتدلين كانوا هم الأكثرية. غير أنه عندما حان الوقت للبتّ في إعدام أو عدم إعدام لويس السادس عشر، رأى أن الناس كانوا يصرخون في طلب رأس الملك، فألقى بصوته الحاسم ـ لصالح المقصلة. وعندئذ صار متطرفاً. ومع ذلك فعندما وصل التوتر إلى الغليان في باريس، تنبأ بخطر الارتباط اللصيق أكثر من اللازم بأي زمرة، وهكذا قبل منصباً في المقاطعات، حيث كان يستطيع أن يبقى مغموراً لفترة من الزمن. وبعد بضعة أشهر عين في منصب قنصل في ليون، حيث أشرف على إعدام عشرات الأرستقراطيين. غير أنه في لحظة معينة أمر بوقف عمليات القتل هذه، لأنه شعر بأن مزاج البلد آخذ في التحول. وعلى الرغم من الدم الذي كان يلوث يديه، فقد حيّاه مواطنو ليون وهتفوا له باعتباره منقذاً لهم ممّا صار يُعْرَفُ بالإرهاب.

وحتى ذلك الحين، لعب فوشيه أوراقه بألمعية. ولكن في سنة 1794، استدعاه صديقه القديم روبسبير إلى باريس لمساءلته عن أعماله في ليون. وكان روبسبير هو القوة المحركة وراء الإرهاب. وكان قد دحرج الرؤوس ذات اليمين وذات الشمال. وبدا أن فوشيه، الذي لم يعد يثق به روبسبير، مقدرٌ لرأسه أن يكون هو التالي. وعلى مدى الأسابيع القليلة التالية نشأ صراع شديد: فبينما راح روبسبير يصرخ علناً ضد فوشيه، متهماً إياه بمطامح خطرة، وداعياً إلى القبض عليه، كان فوشيه المخاتل الماكر يعمل بصورة غير مباشرة، يكسب التأييد بهدوء في صفوف أولئك الذين سئموا من تحكم روبسبير الدكتاتوري. وكان فوشيه يحاول كسب الوقت، ويعرف أنه كلما طال وقت نجاته زاد عدد المواطنين الساخطين الذين يستطيع تجميعهم ضد روبسبير. فقد كان عليه أن يحصل على دعم واسع قبل أن يتحرك ضد زعيم قوي. فحشد دعماً في أوساط المعتدلين واليعاقبة معاً، مستغلاً الخوف الواسع الانتشار من روبسبير ـ فقد كان كل واحد يخشى أن يكون دوره هو التالي للذهاب

روحهم المعنوية الواهنة. وهكذا دعا إلى اجتماع عام بعد بضعة أيام. وقبل الاجتماع أبرز حصانين، أحدهما عجوز وضعيف والآخر كبير ومفعم بالحيوية، وله ذيل منساب لافت للنظر بكثافته وجمال شعره. وإلى جانب الحصان الضعيف وقف رجل طويل قوي، بينما وقف إلى جانب الحصان القوي شخص قصير ضئيل البنية. وعند إعطاء الإشارة جذب الرجل القوي ذيل حصانه وحاول بكل قوته أن يشده إليه، وكأنه سيقطعه، بينما راح الرجل الضعيف يشدّ الشعرات من ذيل الحصان القوي واحدة فواحدة. أما الرجل القوي، فبعد أن جذب بكل قوته فلم يحقق شيئاً، أضحك المشاهدين على هذه العملية، تخلى عن المحاولة في آخر الأمر. وأما الرجل الضعيف فقد استطاع بسرعة أن يجرّد ذيل حصانه من الشعر تماماً. فنهض سرتوريوس على قدميه وقال: «تستطيعون أن تروا، يا أصدقائي وحلفائي، أن المثابرة أكثر فاعلية من القوة الوحشية، وأن هناك صعوبات كثيرة لا يمكن التغلب عليها إذا حاولتم أن تعملوا كل شيء في الوقت نفسه دفعة واحدة، ولكنها ترضخ لكم إن تغلبتم عليها شيئاً فشيئاً. فالحق أن الجهد الثابت المتواصل لا يقاوَم. فهذه هي الطريقة التي يسلك فيها الزمن بأعظم قوى الأرض ويخضعها. فعليكم أن تتذكروا أن الزمن حليف جيد وصديق لكل الذين

إلى المقصلة. وقد أثمر هذا كله في 27 تموز/ يوليو سنة 1794، إذ انقلب المؤتمر على روبسبير وراح أعضاؤه يصرخون لإسكات خطاب روبسبير الطويل المعتاد. فألقي القبض عليه بسرعة. وبعد بضعة أيام كان رأس روبسبير، وليس فوشيه، هو الذي سقط في السلَّة.

يستخدمون ذكاءهم لاختيار اللحظة المناسبة ولكنه أخطر عدو لمن يهجمون على العمل في اللحظة غير المناسبة.

حياة سرتوريوس
بلوتارخ، حوالى
46 - 120م

وعندما عاد فوشيه إلى المؤتمر بعد موت روبسبير، قام بأكبر حركاته بعداً عن المتوقَّع. فبعد أن قاد المؤامرة على روبسبير، كان من المتوقع أن يجلس مع المعتدلين. ولكن العجيب أنه غيَّر ولاءه مرة أخرى فانضم إلى اليعاقبة المتطرفين. ولعلها كانت المرة الأولى في حياته التي ينضم فيها إلى الأقلية. كان من الواضح أنه شعر برد فعلٍ آخذٍ في التململ: كان يعلم أن الزمرة المعتدلة التي أعدمت روبسبير، وكانت على وشك الاستيلاء على السلطة، سوف تبادر إلى تدشين دورة جديدة من الإرهاب، ضد المتطرفين هذه المرة. وإذن فإن فوشيه بانضمامه إلى اليعاقبة، كان يجلس مع شهداء الأيام التالية ـ الناس الذين سَيُعْتَبَرُون غير ملومين على المتاعب القادمة نحوهم. فالانحياز إلى ما كان سيصبح الطرفَ الخاسر كان مناورةً محفوفة بالمخاطر بالطبع. ولكن لا بدَّ أن فوشيه قد حَسَبَ أنه يستطيع المحافظة على رأسه وقتاً يكفي لإثارة السكان ضد المعتدلين بحيث يراقبهم وهم يسقطون من السلطة. وبالفعل، فعلى الرغم من أن المعتدلين طالبوا باعتقاله في كانون الأول/ ديسمبر 1795، وكانوا سيرسلونه إلى المقصلة، فإن وقتاً أطول من اللازم كان قد مضى حتى فات الأوان. فقد فقدت الإعدامات شعبيتها بين الناس، ونجا فوشيه من دورة البندول مرة أخرى.

وتولَّت الأمور حكومة أخرى، هي حكومة الإدارة. غير أنها لم تكن حكومة يعاقبة، ولكن معتدلة، أكثر اعتدالاً من الحكومة التي أعادت فرض عهد الإرهاب. وقد حافظ فوشيه المتطرِّف على رأسه. ولكن كان عليه أن يحافظ على هدوئه ويعود مغموراً. فانتظر بصبرٍ سنواتٍ عديدة، متيحاً للوقت أن يليِّن المشاعر المريرة ضده، ثم اقترب من حكومة

الإدارة وأقنعها بأن لديه حماساً شديداً جديداً، هو جمع المعلومات الاستخبارية. فصار جاسوساً مأجوراً للحكومة وأبدع في هذه الوظيفة بامتياز. فكوفيء في سنة 1799، بجعله وزيراً للشرطة. وعندئذٍ لم يعد ذا سلطة مخولة فحسب، بل طلب مدّ تجسسه إلى كل زاوية في فرنسا ـ وتلك مسؤولية كان من شأنها تعزيز قدرته الطبيعية على تشمّم الاتجاه الذي تهبّ منه الريح. والواقع أنه كان من أوائل النزعات الاجتماعية التي اكتشفها شخصيةُ نابليون، الجنرال الشاب المندفع الذي كان مصيره ـ كما رآه فوشيه في الحال ـ مرتبطاً ارتباطاً متشابكاً مع مستقبل فرنسا. وعندما شنَّ نابليون انقلابه العسكري في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر سنة 1799، تظاهر فوشيه بأنه كان نائماً. والواقع أنه نام طيلة ذلك اليوم بأكمله. وبذلك قدم نابليون مساعدة غير مباشرة (لأنه كان المظنون، بعد كل شيء، أن وظيفة فوشيه هي منع الانقلابات العسكرية) ـ ولذا فقد احتفظ به نابليون وزيراً للشرطة في العهد الجديد.

وعلى امتداد السنوات القليلة التالية، راح نابليون يعتمد على فوشيه أكثر فأكثر. بل لقد أعطى لهذا الثوريّ السابق لقباً، هو دوق أوترانتو. وكافأه بثروة عظيمة. غير أنه بحلول سنة 1808، شعر فوشيه، الذي كان يتناغم دائماً مع إيقاع حركة العصر، بأن خط مسيرة نابليون آخذ في الانحدار. فحربه العبثية مع إسبانيا، البلد الذي لا يشكل خطراً على فرنسا، كان علامة على أنه أخذ يفقد الإحساس بالتناسب. وكان من طبيعة فوشيه أن لا يؤخذ على حين غِرَّة وهو على سفينة آخذة في الغرق. فشرع يتآمر مع تاليران على إسقاط نابليون. ورغم أن المؤامرة فشلت ـ وطرد تاليران؛ وبقي فوشيه، ولكن مقيد الصلاحيات تحت الرقابة ـ فإنها عمَّمَتْ بين الناس سخطاً متنامياً على الإمبراطور، الذي بدا أنه راح يفقد سيطرته. وبحلول سنة 1814، تهاوت سلطة نابليون وتغلبت عليه قوات التحالف في آخر الأمر.

وكانت الحكومة التالية إعادة للملكية، على شكل لويس الثامن

عشر شقيق لويس السادس عشر. وكان أنف جوزيف فوشيه كعهده، سريع التشمم لما تحمله الريح من إرهاصات التغيير الاجتماعي التالي، فشعر بأن لويس الثامن عشر لن يستمر طويلاً، فلم يكن لديه أي شيء من حاسة التمييز التي عند نابليون. وهكذا عاد فوشيه ثانيةً إلى ممارسة لعبة الانتظار، فجعل نفسه مغموراً، وابتعد عن الأضواء. وبالفعل هرب نابليون من جزيرة إلبا في شباط/ فبراير سنة 1815، حيث كان مسجوناً. فشعر لويس الثامن عشر بالذعر. كانت سياساته قد نفّرت المواطنين، الذين كانوا يصرخون في طلب عودة نابليون. فلجأ لويس إلى الرجل الوحيد الذي ربما كان باستطاعته أن ينقذ له جلده... وهو فوشيه: المتطرف السابق الذي كان قد أرسل أخاه، لويس السادس عشر، إلى المقصلة، ولكنه كان الآن واحداً من أكثر الساسة شعبية وإثارة للإعجاب في فرنسا. غير أن فوشيه لم يكن ليقف إلى جانب خاسر: فرفض طلب لويس للمساعدة بالتظاهر بأن مساعدته غير ضرورية ـ وبحلف يمين بأن نابليون لن يعود إلى السلطة (رغم أنه كان يعرف عكس ذلك). وبعد وقت قصير بالطبع، كان نابليون يُطْبِقُ على باريس بجيشه الجديد المكون من المواطنين.

ورأى الملك لويس عهده على وشك الانهيار، وشعر بأن فوشيه قد خانه، وبأنه متأكد من أنه لا يريد مثل هذا الرجل القوي القادر مع فريق نابليون، ولذا أمر باعتقال الوزير وإعدامه. وفي 16 آذار/ مارس سنة 1815، طوّق رجال الشرطة عربة فوشيه في إحدى جادّات باريس. فهل كانت هذه نهايته؟ ربما، ولكن ليس في الحال: فأخبر رجالَ الشرطة أنه لا يمكن اعتقال وزير سابق في الحكومة في الشارع. فصدّقوا هذه القصة وسمحوا له بالعودة إلى بيته. غير أنهم في وقت متأخر من ذلك اليوم جاؤوا إلى بيته وأعلنوا أنه مقبوض عليه. فهز فوشيه رأسه واستأذن من الضباط أن يسمحوا له بغسل وجهه وتغيير ثيابه قبل أن يغادر بيته للمرة الأخيرة. فأذِنوا له. فغادر فوشيه الغرفة. وتتابع مرور الدقائق ولم يعد

كان للسيد شِيهْ ولدان: أحدهما يحب التعلُّم، والآخر يحب الحرب. فقدّم الأول تعليماته الأخلاقية في بلاط شْيِي الذي أعجب بها فجعله معلماً. بينما تحدث الآخر عن الاستراتيجية في بلاط شُو المال للحرب، فعُيّن جنرالاً. وعندما سمع السيد مينغ، المفلس المعدم، بهذه النجاحات، أرسل ولديه ليتبعا مثلَ أولاد شِيهْ. فعرض الأول تعليماته الأخلاقية في بلاط شْيِين، ولكن ملك شْيِين قال: «إن الدول تتنازع بعنف في الوقت الراهن، وكل أمير منهمك في تسليح قواته حتى أسنانها. فإذا اتّبعت تُرّرات هذا المتزمّت فإننا سرعان ما نتعرّض للإبادة». وهكذا أمر بخصي ذلك الشخص. وفي تلك الأثناء عرض أخوه الثاني عبقريّتَه العسكرية في بلاط وَيْ. ولكن ملك وَيْ قال: «إن دولتي ضعيفة. فإذا اعتمدتُ على القوات بدلاً من الدبلوماسية، فسوف نتعرض للمحق بسرعة. ومن جهة أخرى، فإنني إذا تركتُ آكل النار هذا يذهب، فسيعرض خدماته على دولة أخرى، وعندئذٍ ستعرض

فوشيه. وأخيراً دخل رجال الشرطة إلى الغرفة التالية ـ حيث رأوا سُلَّماً متكئاً على نافذة مفتوحة يؤدي نازلاً إلى الحديقة في الأسفل.

وفي ذلك اليوم والذي تلاه مشّط رجال الشرطة باريس بحثاً عن فوشيه. ولكن في ذلك الحين كانت مدافع نابليون مسموعة عبر المسافات، وكان الملك ورجاله جميعاً مضطرين إلى الهرب من المدينة. وحالما دخل نابليون باريس، خرج فوشيه من مخبئه. لقد احتال على الجلاد مرة أخرى. فقد حيّا نابليونُ وزيرَ شرطته السابق وأعاده بسرور إلى منصبه القديم. وخلال الأيام المائة التي بقي فيها نابليون في السلطة، حتى واترلو، كان فوشيه، من حيث الجوهر، هو الذي يحكم فرنسا. وبعد سقوط نابليون، عاد لويس الثامن عشر إلى العرش. وبقي جوزيف فوشيه، كقط بتسع أرواح، ليخدم حكومة جديدة. وعندئذ كانت سلطته ونفوذه قد تعاظما إلى درجة أنه، حتى الملك، لم يكن ليجرؤ على تحديه.

للمناصب». وهكذا أمر بيتر قدمي ذلك الشخص. لقد فعلت العائلتان الشيءَ نفسَهُ تماماً، ولكن إحداهما أجادت اختيار التوقيت على نحو صحيح، والثانية أخطأت في ذلك. وهكذا فإن النجاح لا يعتمد على الاستدلال المنطقي، بل على توقيت الإيقاع.

لي نزُو: مقتبس في كتاب: في المنظار الصيني دنيس بلودوورث، 1967

التفسير

في فترة من الاضطراب العنيف لا مثيل لها في السابق، انتعش جوزيف فوشيه بإتقانه فن التوقيت. ولذا فإنه يعلمنا عدداً من الدروس الأساسية.

أولاً: إن من المهم الاعتراف بروح العصر. لقد كان فوشيه دائماً ينظر إلى خطوتين مسبقاً. ويعثر على الموجة التي ستحمله إلى السلطة فيركبها. فعليك دائماً أن تعمل بمواكبة العصر، وأن تتوقع التغييرات والمنعطفات وتتنبّأ بها. ولا تدع القارب يفوتك. وقد تكون روح العصر غامضة أو غير واضحة أحياناً. فتعرف عليها ليس مما هو أعلى الأصوات أو أوضحها، بل عن طريق ما هو مخفي وخامل في سُبات. فتطلع سلفاً إلى نابليونات المستقبل، بدلاً من التمسك بأطلال الماضي.

وثانياً: إن التعرف على الرياح السائدة لا يعني بالضرورة الجريَ

معها. إن أي حركة اجتماعية قوية تخلق رد فعل قوي. وإن من الحكمة التنبؤ بما سيكون عليه رد الفعل ذاك؛ كما فعل فوشيه بعد موت روبسبير. فبدلاً من ركوب الموجة العارمة في لحظتها انتظر حتى ينحسر المدّ إلى جَزْرٍ كي يعيدك إلى السلطة. وفي بعض الأحيان راهن على رد الفعل الآخذ في الاختمار والجيشان وضع نفسك في طليعته.

وأخيراً: كان لفوشيه صبر عجيب. فبدون التذرع بالصبر سيفاً ودرعاً لك فإن توقيتك سيفشل، وستجد نفسك خاسراً حتماً. فعندما كان العصر معاكساً لفوشيه لم يصارعه، ولم يثر عاطفياً، ولم يضرب بشكل متهور. بل حافظ على برودة أعصابه وعلى رباطة جأشه وهو مغمور بعيداً عن الأضواء. وراح يبني التأييد في صفوف المواطنين، فهذا التأييد دعامة صعوده التالي إلى السلطة. وكلما وجد نفسه في الموقف الأضعف، كان يحاول كسب الوقت، الذي كان يعرف أنه سيكون دائماً من حلفائه إذا كان صبوراً. وإذن فأَدْرِك اللحظةَ التي يتعين عليك فيها أن تختفي وسط العشب أو تنساب منزلقاً تحت صخرة، وكذلك اللحظة التي تكشف فيها عن أنيابك وتهاجم.

المسافة نستطيع أن نستعيدها، أما الزمن، فلا أبداً.

نابليون بونابرت 1769 ـ 1821

مفاتيح السلطة

الوقت مفهوم مصطنع خلقناه بأنفسنا كي نجعل انعدام الحدود في الأبدية والعالم أكثر قابلية للاحتمال، وأكثر إنسانية. وبما أننا بَنَيْنَا مفهوم الوقت، فإننا أيضاً قادرون على قولبته إلى حدّ مّا، وأن نمارس به الخدع والأحابيل. فوقت الطفل طويل وبطيء وفيه امتدادات شاسعة. أما زمن البالغ فيمرّ كاسحاً بسرعة مخيفة. فالوقت إذن يعتمد على الإدراك الحسي الذي نعرف أنه يمكن تغييره بالإرادة. فهذا هو الشيء الأول الذي ينبغي فهمه في إتقان فن التوقيت. فإذا كان الاضطراب الداخلي الناجم

كان سلطان [فارس] قد حكم على شخصين بالإعدام وكان أحدهما يعرف مدى حب السلطان لحصانه. فعَرَضَ أن يعلّم الحصان الطيران في غضون سنة، في مقابل الإبقاء على حياته. وتخيل السلطان نفسَهُ راكباً الحصان الطائر الوحيد في العالم، فوافق. فنظر السجين الآخر إلى صديقه وهو غير مصدّق، فقال: «أنت تعلم أن الخيل لا تطير. فما الذي جعلك تطلع بفكرة مجنونة كهذه؟» فقال [السجين الأول]: «ليس الأمر كذلك، إذ إنني أعطيت نفسي أربع فرص لنيل الحرّيّة. فأولاً: قد يموت الملك في غضون السنة، وثانياً: قد أموت أنا، وثالثاً: قد يموت الحصان، ورابعاً: . . . قد أعلم الحصان أن يطير!».

حرفة السلطة

د. ج. هـ. سْيُو، 1979

عن جيشان العواطف يجعل الوقت يتحرك أسرع، فإن ذلك يتبعه أننا عندما نتحكم باستجاباتنا العاطفية للأحداث، فإن الوقت سيتحرك بصورة أبطأ بكثير. وهذه الطريقة المتغيرة في التعامل مع الأشياء تميل إلى إطالة إدراكنا للزمن المستقبل، وتفتح إمكانيات يغلقها الخوف والغضب، وتتيح لنا الصبر، الذي هو المطلب الرئيسي في فن التوقيت.

فهناك ثلاثة أنواع من الوقت نتعامل معها. وكلٌّ منها ينطوي على مشاكل يمكن حلها بالمهارة والتدريب. فأولاً هناك **الوقت الطويل**: وهو الزمن الممطوط إلى سنوات، والذي يجب إدارته بالصبر والتوجيه اللطيف. إن تعاملنا مع الوقت الطويل ينبغي أن يكون في معظمه دفاعياً ـ إنه فن عدم الاستسلام لرد الفعل المتهور، وانتظار الفرصة. ويلي ذلك **الوقت المفروض**: وهو وقت المدى القصير الذي نستطيع التلاعب به كسلاح هجومي، فنخلق الاضطراب والخلل في توقيت خصومنا. وأخيراً: هناك وقت النهاية عندما يتعين تنفيذ خطةٍ مّا بسرعة وقوة. أي بعد أن نكون قد انتظرنا، وعثرنا على اللحظة، ويجب أن لا نتردد.

الوقت الطويل: يروي رسام القرن السابع عشر الصيني شو يونغ، من أواخر فترة سلالة مِينغْ، قصةً غيرت سلوكه إلى الأبد. ففي وقت متأخر ذات مساء شتوي، خرج لزيارة مدينة تقع عبر النهر من مدينته. وكان يجلب معه بعض الكتب والأوراق الهامة، واستأجر ولداً لمساعدته في حملها. وعندما اقتربت العبّارة من الجانب الآخر من النهر، سأل شو يونغُ الملاحَ عما إذا كان لديهم من الوقت ما يتيح لهم الوصول إلى المدينة قبل إغلاق بوّاباتها، إذْ أنها كانت على بعد ميل، وكان الليل يقترب. فنظر الملاح إلى الولد، وإلى رزمة الورق والكتب المربوطة بشكل متراخٍ، وأجاب: «نعم، إذا لم تمشِ بسرعةٍ مفرطة».

غير أنهم عندما بدأوا كانت الشمس آخذة في الغياب. وخشي شو والولد الذي معه من إغلاق أبواب المدينة دونهما في الليل، ومن سقوطهما فريسة لقطّاع الطرق المحليين، فراحا يمشيان أسرع فأسرع،

السلمونة والشبوطة

وقف صياد سمك في شهر أيار/مايو، على ضفة نهر التايمز يصطاد بِشصٍّ مصطنع. فألقى الطعم على نحو في كثير من التفنّن إلى درجة أن سلمونةً صغيرة هجمت عليه، فمنعتها أمها، قائلةً لها: «لا تتسرعي أكثر مما ينبغي يا صغيرتي حيث يوجد احتمال للخطر. بل خذي وقتاً كافياً للتفكير قبل أن تغامري بعمل قد يكون مميتاً. فكيف تعرفين أن هذا الشيء الظاهر هناك هو ذبابة فعلاً، أم مصيدة للعدو؟ دعي أحداً آخر يقوم بهذه التجربة قبلك. فإن كانت ذبابة فقد تتجنب الهجوم الأول. وعندئذٍ يمكنك القيام بالهجمة الثانية، إن لم يكن بنجاح، فبسلامةٍ على الأقل».

حتى انقلب سيرهما جرياً. وفجأة انقطع الخيط الذي يحيط بالأوراق فتبعثرت الوثائق على الأرض، وما إن وصلا إلى بوابات المدينة حتى كان الأوان قد فات.

فعندما تَقْسِرُ إيقاع خطواتك قَسْراً بسبب الخوف أو فقدان الصبر، فإنك تخلق عشاً من المشاكل التي تتطلب حلاً، وينتهي بك الأمر إلى أن تستغرق وقتاً أطول مما كنت ستستغرقه لو سِرْتَ على مهل. فالمستعجلون قد يصلون أسرع أحياناً، ولكن الأوراق تتطاير في كل مكان، وتنشأ أخطارٌ أخرى، فيجدون أنفسهم في صيغة أزمة مستمرة، يعالجون المشاكل التي خلقوها بأنفسهم. وقد يكون عدم التصرف في وجه الخطر هو أفضل حركة لك في بعض الأحيان. فتنتظر وتتعمد الإبطاء. ومع مرور الزمن تأتي فرصٌ في آخر الأمر لم تكن قد تَصَوَّرْتَها.

والانتظار ينطوي على التحكم، ليس بعواطفك فقط، بل كذلك بعواطف زملائك الذين قد يخطئون فيعتبرون التصرفَ سلطةً ويحاولون دفعك إلى القيام بحركة متهورة. ومن جهة أخرى، فإنك تستطيع أن تشجع خصومك على ارتكاب الغلطة نفسها: فإذا تركتهم يهجمون على المتاعب رأساً، بينما تبتعد أنت وتنتظر، فإنك سرعان ما تجد اللحظة الناضجة لتتدخل وتلتقط بقايا القطع المكسرة. فقد كانت هذه السياسة الحكيمة هي الاستراتيجية الرئيسية للإمبراطور الياباني العظيم طوكوغاوا إياسو في أوائل القرن السابع عشر. فعندما قام سلفه العنيد هيديوشي، الذي كان إياسو قد خدمه كواحد من جنرالاته، بشن غزو متهور ضد كوريا، ابتعد إياسو عن توريط نفسه فيه. فقد كان يعلم أن الغزو سيكون كارثة، وسيؤدي إلى سقوط هيديوشي. إن من الأفضل الوقوف جانباً في صبر، **حتى ولو استغرق ذلك سنوات كثيرة**، لتكون بعد ذلك في مركز يتيح لك الاستيلاء على السلطة عندما يكون الوقت مناسباً ـ وهذا بالضبط هو ما فعله إياسو، ببراعة فنيَّة عظيمة.

إنك لا تتعمد إبطاء سير الزمن لتعيش أطول، أو لتستمتع باللحظة

ولم تكد تكمل كلامها حتى أمسكت شبوطة بالذبابة المزعومة. فصارت مثلاً للسلمونة الصغيرة على أهمية نصائح أمها.

خرافات
روبرت دودزلي،
1703 ـ 1764

أكثر، بل لكي تمارس لعبة السلطة على نحو أفضل. فأولاً، عندما لا يكون ذهنك منشغلاً بتكدس الطوارىء المستمرة، فإنك سترى إلى مسافة أبعد في المستقبل. وثانياً، ستكون قادراً على مقاومة كل طُعْم يدلي به الناس أمامك، وستحمي نفسك من التحول إلى مغفّلٍ آخرَ فاقدَ الصبر. وثالثاً، سينفسح أمامك مجال لتكون مرناً. وسوف تنشأ حتماً فرصٌ لم تكن قد توقعتَها، وكنتَ ستضيعها لو أنك قَسَرْتَ إيقاع خطواتك. ورابعاً، فإنك لن تنتقل من قضيةٍ إلى التي تليها بدون استكمال الأولى. ذلك أن بناء أساس سلطتك قد يستغرق سنوات، فتأكد من كون ذاك الأساس آمناً. فلا تكن مخفقاً. لأن النجاح الذي يتم بناؤه ببطء وبثقة أكيدة، هو وحده النوع الذي يدوم طويلاً.

وأخيراً، فإن إبطاء إيقاع الزمن سيعطيك زاوية نظر إلى العصر الذي تعيش فيه، فيتيح لك الابتعاد مسافة معينة، ويضعك في مركز أقل شحناً بالعواطف ويمكنك من رؤية شكل الأشياء القادمة. فكثيراً ما يخطىء المستعجلون فيظنون الظواهر السطحية اتجاهاً حقيقياً، فلا يرون إلاّ ما يريدون أن يروه. والأفضل من ذلك بكثير هو رؤية ما يحدث في الواقع حتى ولو كان كريهاً ويجعل مهمتك أصعب.

الوقت المفروض: إن خدعة فرض الوقت، هي إحداث خلل في توقيت الآخرين، وجعلهم ينتظرون، وجعلهم يتخلون عن إيقاعهم ذاته، وتشويش إدراكهم الحسي للزمن. فعندما تحدث اضطراباً في توقيت خصومك، بينما تظل أنت صابراً، فإنك تفتح فرصة زمنية لنفسك، وهذا نصف اللعبة.

في سنة 1473، دعا السلطان العثماني العظيم محمد الفاتح إلى إجراء مفاوضات مع هنغاريا لإنهاء الحرب التي شنها الطرفان بشكل متقطع على مدى سنوات. وعندما وصل المبعوث الهنغاري إلى تركيا لبدء المحادثات، اعتذر المسؤولون الأتراك بتواضع، قائلين إن محمداً

قد غادر العاصمة إسطنبول ليخوض معركة ضد عدوه القديم أوزون حسن. ولكنه يريد السلام مع هنغاريا بصورة عاجلة، وقد طلب أن ينضم إليه المبعوث في الجبهة.

وعندما وصل المبعوث الهنغاري إلى موقع القتال، كان السلطان محمد الفاتح قد غادره متجهاً إلى الشرق لمطاردة عدوه السريع الحركة. وتكرر ذلك عدة مرات. فحيثما توقف المبعوث، كان الأتراك يغدقون عليه الهدايا ويقيمون له المآدب في حفلات سارة ولكنها مستهلكة للوقت. وأخيراً هزم محمدٌ أزونَ والتقى بالمبعوث الهنغاري. ومع ذلك فقد كانت شروطه للسلام مع هنغاريا مفرطة في قسوتها. وبعد بضعة أيام انتهت المفاوضات، وظل المأزق المعتاد للطريق المسدود في مكانه. ولكن هذا كان جيداً بالنسبة لمحمد. والواقع أنه كان قد خطط له بهذه الطريقة من البداية على طول الخط. ذلك أنه عندما خطط حملته ضد أوزون كان قد رأى أن تحويل جيوشه إلى الشرق سيترك جناحه الغربي مكشوفاً. ولمنع هنغاريا من استغلال نقطة ضعفه وانشغاله في مكان آخر، أدلى أولاً بإغراء السلام أمام عدوه، ثم جعله ينتظر ـ وكل ذلك وفق شروطه هو.

إن جعل الناس ينتظرون هو أسلوب قوي لفرض الوقت، ما داموا غير مدركين لما تهدف إليه. فأنت تسيطر على الساعة بينما هم ينتظرون متسكعين في منطقة مهملة أو منسية لا يحصلون منها على شيء، بل يلقون الفراغ بسرعة، مما يفتح أمامك فرصاً لتوجيه ضربتك. كما أن التأثير المعاكس قوي الفاعلية كذلك: إذْ أنّك تجعل خصومك يتعجّلون. فابدأ تعاملك معهم ببطء، ثم مارس الضغط فجأةً، مما يجعلهم يشعرون أن كل الأشياء آخذة في الحدوث دفعة واحدة. فالناس الذين ينقصهم الوقت للتفكير يرتكبون أخطاء ـ وهكذا حدّد لهم المهلة النهائية. فقد كان هذا الأسلوب هو الذي جعل ماكيافيللي يُعْجَبُ بسيزار بورجيا الذي

كان يضغط أثناء المفاوضات فجأةً وبعنفٍ وإلحاح طالباً اتخاذ قرار، فيحدث خللاً في توقيت خصمه وصبره. إذْ مَنِ الذي كان يجرؤ على ترك سيزار ينتظر؟

وكان جوزيف دوفين، تاجر اللوحات الفنية الشهير، يعرف إذا قدم إنذاراً بمهلة نهائية لمشترٍ متردد مثل جون د .روكفيلر . بالزعم أن اللوحة يجب أن تغادر البلد، لأن واحداً آخر من ملوك المال مهتمٌّ بها ـ فإن الزبون سيشتري في الوقت المناسب تماماً. وقد لاحظ فرويد أن المرضى الذين أمضوا سنواتٍ في التحليل النفسي دون تحسن كانوا يتعافون بما يشبه المعجزات، وفي الوقت المناسب، إذا حدد تاريخاً معيناً لانتهاء المعالجة. وقد استخدم المحلل النفسي الفرنسي جاك لاكان تنويعاً على هذه الخطة التكتيكية ـ فكان في بعض الأحيان ينهي جلسات العلاج المعتادة التي مدتها ساعة بعد مضي عشر دقائق منها فقط، وبدون سابق إنذار. وبعد حدوث ذلك عدة مرات، كان المريض يدرك أن من الأفضل له أن يستفيد إلى أقصى حد من الوقت المتاح، بدلاً من أن يمضي الجزء الأكبر من الساعة المخصصة للجلسة في كثير من الكلام الذي لا معنى له. فالمهلة النهائية إذن أداة قوية. فأغلق آفاق التردد وأرغم الناس على أن يحسموا أمرهم اللعين، أو يصلوا إلى بيت القصيد . ولا تتركهم أبداً يرغمونك على اللعب وفق شروطهم المؤلمة. ولا تعطهم وقتاً قَطّ.

إن السحرة ورجال الاستعراضات خبراء في فرض الوقت. فكثيراً ما كان هوديني يستطيع التلوّي والإفلات من أصفاد اليدين بدقائق. ولكنه كان يطيل العملية إلى ساعة، فيجعل المشاهدين يتصببون عرقاً، بحيث يبدو الوقت وكأنه توقف تماماً. وكان السحرة يعرفون دائماً أن أفضل طريقة لتغيير إدراكنا للوقت هي على الأغلب إبطاء الإيقاع. فخلق التوتر والتوقع يوقف الوقت إيقافاً مرعباً: فكلما أبطأت حركة يدي الساحر،

صار من الأسهل خلق وهم السرعة بجعل الناس يظنون أن الأرنب قد ظهر على الفور في لحظة. وهذا تأثيرٌ لاحظه بوضوحٍ ساحرُ القرن التاسع عشر العظيم جان ـ يوجين روبرت ـ هودين بقوله: «كلما رُوِيَت القصة ببطء أكثر، فإنها تبدو أقصر».

كما أن التباطؤ يجعل ما تقوم به أكثَرَ إثارةً للاهتمام ـ إذْ أن المتفرجين يخضعون لإيقاعك ويصبحون مسلوبي اللبّ. وهذه حالة ينساب فيها الوقت مسرعاً بسرور ومتعة. فيجب أن تتمرن على خلق مثل هذه الأوهام، التي تشترك مع قوة المنوّم المغناطيسي القادرة على تغيير إدراك الو قت.

وقت النهاية: بإمكانك أن تمارس اللعبة بأقصى تفنّن ـ فتنتظر بصبرٍ لتتصرف حين تأتي اللحظة المناسبة. فتشوش على منافسيك بالتدخل المُخِلّ بتوقيتهم ـ ولكن ذلك لن يعني شيئاً ما لم تعرف كيفية الإنهاء. فلا تكن من الذين يظهرون وكأنهم نمادج مثالية للصبر، ولكنهم في الحقيقة خائفون من إيصال الأشياء إلى ختامها: فالصبر لا قيمة له ما لم يكن مشفوعاً بالاستعداد للانقضاض على خصمك في اللحظة المناسبة بلا رحمة. ويمكنك الانتظار بالقدر اللازم حتى تأتي الخاتمة، ولكن عندما تأتي فإنها يجب أن تأتي بسرعة. استعمل السرعة لتشل خصمك ولتغطية أية أخطاء قد ترتكبها، ولإثارة إعجاب الناس بهالة السلطة والحسم النهائي المحيطة بك.

فبصبرِ ساحر الأفاعي، تخرج الأفعى بأنغام هادئة وثابتة. ولكن عند خروج الأفعى، هل تدلي بقدمك فوق رأسها المميت؟ فليس هناك من سبب وجيه أبداً للسماح لأخف عثرة في لعبة الإنهاء التي تمارسها. والحقيقة أن إتقانك للتوقيت لا يمكن الحكم عليه إلاّ بالكيفية التي تعمل بها في وقت الإنهاء ـ كيف تغير الإيقاع بسرعة، وتوصل الأشياء إلى خاتمة سريعة وحاسمة.

صورة: الصقر. بصبر وصمت يدور في الجو عالياً فيرى كل
شيء بعينيه القويتين. بينما الموجودون تحته لا
يشعرون بأنهم متبوعون. وفجأة، عندما تحين
اللحظة، ينقض الصقر بسرعة لا دفاع
ضدها؛ وقبل أن تعرف فريسته
ماذا حدث، تكون مخالبه التي
تشبه الملزمة، قد حملتها
وارتفعت بها إلى
السماء.

الشاهد:هناك مدٌّ في شؤون الرجال/فإذا رُكِبَ وقت فيضانه، فإنه يقود إلى الثروة؛ /وإذا أُهمِل، فإن رحلة حياتهم كلها/تظل مشدودة إلى الضحالات والتعاسات. (مسرحية: يوليوس قيصر، لمؤلفها وليام شكسبير، 1564. 1616).

الانقلاب

ليست هناك سلطة يمكن كسبها من إفلات الزمام والتكيف لكل ما يأتي به الزمن. إن عليك أن تقود الزمن وتوجهه إلى حدٍ مّا، وإلاّ فستكون ضحية له بلا رحمة. وبناء عليه فليس هناك انقلاب لهذا القانون.

القانون

36

احتقر الأشياء التي لا تستطيع امتلاكها: فتَجاهُلها أفضل انتقام

الحكم

إذا اعترفت بمشكلة تافهة فإنك تعطيها وجوداً ومصداقية. وكلما زاد اهتمامك بعدوٍ فإنك تجعله أقوى؛ والغلطة الصغيرة كثيراً ما تصير أسوأ عندما تحاول إصلاحها. والشيء الأفضل أحياناً هو ترك الأمور وشأنها. فإنْ كان هناك شيء تريده ولا تستطيع امتلاكه، فاظهر احتقارك له. فكلما قلّ الاهتمام الذي تظهره، فإنك ستبدو أكثر تفوقاً.

انتهاك القانون

الثعلب والعنب
رأى ثعلب عفّ الجوع عنقود عنبٍ مغري المنظر أرجواني الالتماع يتدلّى فوقه من إطار عريش. وكان يود بقوة لو يصبح العنقود غداء له. ولكنه لما حاول أن يصل إليه وفشل قال: «إن من المرجح أنه ليس حلواً، فلا يصلح طعاماً إلاّ للحمقى الأغرار». أما كان من الأعقل أن يقول إنه غير ناضج، بدلاً من أن يموي ويتذمر؟.
خرافات
جان دي لافونتين،
1695 ـ 1621

بدأ زعيم المتمردين المكسيكيين بانشو فيلاّ، انطلاقه كرئيس لعصابة من قطاع الطرق. ولكن بعد اندلاع الثورة في المكسيك سنة 1910، أصبح بطلاً شعبياً من نوعٍ مّا ـ ينهب القطارات ويعطي المال للفقراء. ويقود غارات جريئة، ويسحر النساء بمغامراته الفروسية. وأَنْشَدَهَ الأميركيون بأعماله. كان يبدو رجلاً من فترة أخرى، مزيجاً من روبن هود ودون جوان. غير أنه بعد سنوات قليلة من القتال المرير، برز الجنرال كارّانزا منتصراً في الثورة، وعاد فيلاّ المدحور وجنوده إلى وطنهم في ولاية شيهواهو الشمالية. وتضاءل جيشه وعاد إلى قطع الطرق ثانية، مما أضرّ بشعبيته. وأخيراً، وربما نتيجة لليأس، بدأ يشتم الولايات المتحدة، والغرباء ويلومهم على متاعبه.

وفي آذار/ مارس 1916، أغار بانشو فيلاّ، على كولومبوس بولاية نيومكسيكو، فجاس خلال المدينة هو وعصابته فقتلوا سبعة عشر أميركيّاً ما بين جنديّ ومدنيّ. وكان الرئيس وودرو ويلسون، مثل كثيرين من الأميركيين، معجباً بفيلاّ. أما بعد تلك الغارة فقد كانت هناك حاجة إلى معاقبة قاطع الطرق. فحثّ المستشارون ويلسون على إرسال قوات إلى المكسيك لأسر فيلاّ. وجادلوا في أن قوة كبرى بحجم الولايات المتحدة، إذا لم تردّ ضربةَ جيشٍ غزا أراضيها، فسترسِل أسوأَ نوع من الإشارات. وتابعوا يقولون إنه بالإضافة إلى ذلك، فإن كثيراً من الأميركيين يرون ويلسون كرجل مسالم، وهذا مبدأ يشك عامة الناس في

صلاحيته كَرَدٍّ على العنف؛ فهو بحاجة إلى إثبات حماسته ورجولته بإصدار الأمر باستخدام القوة.

كان الضغط على ويلسون قويّاً، وقبل أن ينتهي ذلك الشهر، وبموافقة حكومة كارّانزا، أرسل جيشاً من عشرة آلاف جندي للقبض على بانشو فيلاّ. وسمّي ذلك المشروع «الحملة العقابية»، وكان قائدها هو الجنرال المندفع جون ج. بيرشينغ، الذي كان قد دحر المحاربين غير النظاميين في الفلبين، والأهالي الأميركيين الأصليين في الجنوب الغربي الأميركي. فكان من المؤكد أنه سيتمكن من العثور على بانشو فيلاّ والتغلب عليه.

وصارت الحملة العقابية قصة مثيرة. ولحق بالجنرال بيرشينغ العديد من السيارات الملأى بالمراسلين الصحفيين إلى الميدان. فكتبوا إن الحملة ستكون اختباراً للقوة الأميركية. وكان الجنود يحملون أحدث الأسلحة، ويتصلون بأجهزة اللاسلكي، ويدعمهم استطلاع من الجوّ.

ذات مرة، عندما سخر جورج برنارد شو في كلام مطبوع من الآراء الاقتصادية لجيلبرت كيث تشيسترتون، انظر هيلير بيلوك، فقال تشيسترتون: «يا عزيزي بيلوك، بالنسبة لرجل في مثل فطنة شو وسرعة بديهته، فإن الصمت هو الردّ الوحيد الذي لا يطاق».

كتاب الحكايات البنني الصغير
تحرير كليفتون فاديمان، 1985

وفي الأشهر القليلة الأولى، انقسمت القوات إلى وحدات صغيرة لتمشيط البراري الوعرة في شمال المكسيك. وعرض الأميركيون جائزة قدرها خمسون ألف دولار لقاء معلومات تؤدي إلى القبض على بانشو فيلاّ. ولكن الشعب المكسيكي، الذي كان قد سخط على فيلاّ، وخاب أمله فيه عندما عاد إلى قطع الطرق، صار يعبده الآن لأنه يواجه جيشاً أميركياً قوياً. فبدأ الناس يعطون بيرشينغ معلومات مضللة: لقد شوهد فيلاّ في هذه القرية، أو في ذلك المخبأ الجبليّ. فترسل الطائرات، ويهرع الجنود وراءها، ثم لا يراه أحدٌ قطّ. وبدا أن قاطع الطرق يظل سابقاً العسكريين الأميركيين خطوة على الدوام.

وبحلول صيف تلك السنة (1916) كانت الحملة قد تضخمت إلى 123000 رجل، فراحوا يعانون من الحرارة المسببة للجنون، والبعوض، ووعورة التضاريس. وأخذوا يزحفون بجهد شاق عبر الأرياف وسط

أناس ساخطين على وجودهم فأثاروا ثائرة السكان المحليين والحكومة المكسيكية على حد سواء. وفي إحدى المراحل كان بانشو فيلاّ مختبئاً في كهف جبلي كي يتعافى من جرح بالرصاص تلقاه أثناء مناوشة مع الجيش المكسيكي. وعندما نظر إلى الأسفل من وكره المرتفع، تمكن من رؤية بيرشينغ يقود القوات الأميركية المرهقة جيئة وذهوباً، عبر الجبال، دون أن يقتربوا من هدفهم على الإطلاق.

وطوال الطريق عبر فصل الشتاء، ظلّ بانشو فيلاّ يمارس لعبة القط والفأر هذه. وأخذ الأميركيون يرون القضية كنوع من المهازل التهريجية الرخيصة الفظّة ـ بل لقد راحوا يعجبون بفيلاّ كرة أخرى، ويحترمون سعة حيلته في تفادي قوة متفوقة. وفي كانون الثاني/ يناير سنة 1917، أمر ويلسون بسحب بيرشينغ في آخر الأمر. وبينما كانت القوات الأميركية تتخذ طريقها عائدة إلى الأراضي الأميركية، شرعت قوات المتمردين تطاردها. فاضطر الجيشَ الأميركيَّ إلى استخدام الطائرات لحماية أجنحة مؤخرته. فكانت الحملة العقابية تتلقى العقاب بدورها ـ إذْ تحولت إلى تراجع من أكثر الأنواع إذلالاً.

الحمار والبستاني

فَقَدَ حمارٌ ذيله في حادث ذات مرة، فكانت مصيبة أليمة الوقع عليه ومحزنة. وراح يبحث عن ذيله في كل مكان، فقد بلغ من حمقه أنه اعتقد أن من الممكن تركيب ذيله في مكانه مرة أخرى. فمرَّ عبر مرج، ثم دخل حديقةً بعد ذلك. فرآه البستاني، ولم يتحمل التخريب الذي سببه عندما راح الحمار يطأ نباتاته، فاستشاط غضباً، ولم ينتظر الوقوف على آلة التعذيب الشهيرة، بل هجم على الحمار وقطع أذنيه، وضربه وأخرجه من الأرض. وهكذا، فإن الحمار، الذي كان يندب ذيله، بدأ يخشى مصيبةً أكبر عندما رأى نفسه بلا أذنين.

خرافات بلباي [بَيدَبا؟]، الهند القرن الرابع

التفسير

نظم وودرو ويلسون الحملة العقابية كعرضٍ للقوة: فأراد أن يلقن بانشو فيلاّ درساً، ويبين للعالم في تلك العملية أنه لا يستطيع أحد، كبيراً كان أم صغيراً، أن يهاجم الولايات المتحدة القوية ثم يفلت من العقاب وستنتهي الحملة في غضون بضعة أسابيع ويصبح فيلاّ نسياً منسيّاً.

ولكن الأمور لم تَسِرْ على ذلك النحو. فمع طول مدة الحملة، زاد تركيز الانتباه على عجز الأميركيين وعدم كفاءتهم، وعلى براعة بانشو فيلاّ. وسرعان ما لفّ النسيان الغارة التي بدأت الأمر كله، ولم يُنسَ فيلاّ. وبينما تحول إزعاج ثانوي إلى إحراج دولي، وراح الأميركيون

الغاضبون يرسلون مزيداً من القوات، فإن القضية تحولت إلى نكتة، بسبب انعدام التوازن بين حجم الضغط وحجم الشخص المطارَد ـ الذي تمكن من البقاء طليقاً .. وفي خاتمة المطاف، اضطر ذلك الجيش الكثير النفقة، القليل المردود، إلى الكدح المضني في خروجه من المكسيك ذليلاً مُهاناً. فقد أدت الحملة العاقبية عكس ما أرسلت لإنجازه: إذ تركت بانشو فيلاّ، ليس طليقاً فحسب، بل متمتعاً بشعبية أكثر من ذي قبل.

ما الذي كان باستطاعة ويلسون أن يفعله بطريقة مختلفة؟ كان بإمكانه أن يضغط على حكومة كارَّانزا لتقبض له على فيلاّ. أو كبديل لذلك، ما دام كثير من المكسيكيين قد سئموا من فيلاّ قبل أن تبدأ الحملة العقابية، كان بإمكانه أن يعمل معهم بهدوء ويكسب تأييدهم لغارة أصغر بكثير للقبض على قاطع الطرق. وكان بإمكانه أن ينظم فخاً على الجانب الأميركي من الحدود توقعاً للغارة التالية. وكان بإمكانه أن يتجاهل القضية برمّتها مؤقتاً، في انتظار أن يتخلص المكسيكيون من فيلاّ من تلقاء أنفسهم.

تذكّر: إنك أنت الذي تدع الأشياء تزعجك باختيارك. فبإمكانك بسهولة مماثلة أن تختار أن لا تلاحظ ٱلْمُضَايِق المزعج، وأن تعتبر الأمر تافهاً وغير جدير باهتمامك. فتلك هي الحركة القوية. فالشيء الذي لا تبدي إزاءه أي ردّ فعل لا يمكنه أن ينزل بك إلى اشتباكٍ لا جدوى فيه. إذ أنه لا يمس كرامتك وعزة نفسك. فأفضل درس تستطيع تلقينه لبعوضة مزعجة أن تودعها في النسيان بتجاهلها. فإن كان تجاهلها مستحيلاً (إذْ أن بانشو فيلاّ، كان في الواقع، قد قتل مواطنِين أميركيّين) فتآمر سرّاً للتخلص منها، ولكن لا تلفت الأنظار عن غير قصد إلى الحشرة المزعجة التي ستبتعد أو تموت من تلقاء نفسها. فإذا ضيعتَ وقتاً أو طاقةً على مثل هذا الاشتباك، فهذا خطؤك بالذات. تعلَّم أن تلعب ورقة الاحتقار، وأدر ظهرك لِمَا لا يمكن أن يؤذيك على المدى الطويل.

الثور الأعجوبة

ذات مرة، عندما كان طوكوديجي رزيراً للمحمية ورئيساً للشرطة الإمبراطورية، كان يعقد اجتماعاً مع موظفيه عند البوابة الوسطى عندما أفلت ثورٌ يملكه موظفٌ يدعى آكيكين وراح يتجول في مبنى الوزارة. فصعد إلى المنصة التي كان يجلس عليها رئيس الشرطة، واضطجع هناك بجنر. فتأكد الجميع أن ذلك له دلالة خطيرة، وحثّوا على إرسال الثور إلى عراف يقرأ المستقبل. غير أن رئيس الوزراء، والد وزير المحمية، قال: «الثور لا يستطيع التمييز. فله قوائم، وليس هناك مكان يمتنع عن الذهاب إليه. فليس هناك معنى لحرمان موظف ذي معاش متواضع من الثور النحيس الذي يحتاج إليه ليحضر إلى البلاط». وأعاد الثور إلى صاحبه، وغيّر الحشايا التي اضطجع الثور عليها. فلم تحدث حادثة غير مؤاتية من أي نوع بعد ذلك.

فكروا في هذا الأمر فقط ـ لقد تجشمت حكومتكم 130 مليون دولار في محاولة القبض عليّ. فأخذتهم عبر أراضٍ تلاليّة وعرة كانت تمتد أحياناً خمسين ميلاً دون أن يكون لديهم ماء. فلم يكن لديهم سوى الشمس والبعوض... ولم يكسبوا شيئاً.

(بانشو فيلاّ، 1878 ـ 1923)

والناس يقولون إنك إذا رأيت معجزة ولم تعاملها على أنها كذلك، فإن طابعها كمعجزة سوف يُدَمَّر.

مقالات في البطل كينكو، اليابان، القرن الرابع عشر

مراعاة القانون

في سنة 1527، قرر هنري الثامن ملك إنكلترا أن عليه أن يجد طريقة للتخلص من زوجته، كاترين أميرة آراغون. فقد فشلت في إنجاب ولد ذكر يرثه ليضمن استمرار سلالته. وكان هنري يعتقد أنه يعرف لماذا: فقد قرأ في العهد القديم المقطع القائل: «وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة. قد كشف عورة أخيه. يكونان عقيمين» (لاويين: 21، 20). فقبل الزواج من هنري، كانت كاترين قد تزوجت من أخيه الأكبر، آرثر، ولكن آرثر مات بعد الزواج بخمسة أشهر. فانتظر هنري وقتاً مناسباً، ثم تزوج أرملة أخيه.

وكانت كاترين ابنة ملكَيْ إسبانيا فرديناند وإيزابيللا، وبزواجها حفظ هنري حياة تحالف ثمين. غير أن كاترين اضطرت إلى أن تؤكد له أن زواجها القصير من هنري لم ينفّذ على الإطلاق، وإلاّ فإن هنري كان سينظر إلى علاقتهما باعتبارها زنىً بالمحارم ويعتبر زواجهما لاغياً وباطلاً. فأصرّت كاترين على أنها ظلت عذراء طيلة زواجها من آرثر. وأيدها البابا كليمنت السابع بمباركته لزواجها من هنري. وهو أمرٌ لم يكن البابا ليفعله لو كان يعتبر زواجهما زنىً بالمحارم. ومع ذلك فبعد سنوات من الزواج من هنري فشلت كاترين في إنجاب ولد، وفي أوائل عشرينات القرن السادس عشر دخلت سن اليأس. وكان ذلك بالنسبة للملك لا يمكن أن يعني إلاّ شيئاً واحداً: لقد كذبت حول عذريّتها، وزواجهما زنىً بالمحارم، وقد عاقبهما الله.

وكان هناك سبب آخر لرغبة هنري في التخلص من كاترين. لقد

وقع في غرام امرأة شابة، هي آن بولين. ولم يكن مغرماً بها فحسب، ولكنه إذا تزوج منها فسوف يستطيع أن يأمل في إنجاب ولد شرعي. ولذا كان لا بد من إلغاء زواجه من كاترين. غير أن هنري، لكي يحقق ذلك كان عليه أن يقدم طلباً للفاتيكان. ولكن البابا كليمنت لن يلغي الزواج أبداً.

وبحلول صيف سنة 1527، كانت الإشاعات قد انتشرت في جميع أنحاء أوروبا بأن هنري سيحاول المستحيل ـ وهو إلغاء زواجه رغم رغبات كليمنت. ولكن كاترين لن تتنازل، دع عنك الدخول في دير بإرادتها، كما حثّها هنري أن تفعل. ولكن هنري كانت لديه استراتيجيته الخاصة به. فقد توقف عن النوم في الفراش نفسه مع كاترين، لأنه اعتبرها كأخته، وليس كزوجته القانونية. وأصرّ على تسميتها أميرة ويلز الأرملة، وكان ذلك هو لقبها باعتبارها أرملة آرثر. وأخيراً، في سنة 1531، نفاها من بلاطه، وشحنها إلى قلعةٍ نائية. فأمره البابا بإعادتها إلى البلاط، تحت طائلة معاقبته بالحرمان، وهو أقصى عقاب يمكن أن يتعرض له كاثوليكي. فلم يكتفِ هنري بتجاهل هذا التهديد، بل أصرّ على أن عقدة زواجه من كاترين قد انحلّت. وفي سنة 1533، تزوج من آن بولين.

ورفض كليمنت أن يعترف بالزواج. ولكن هنري لم يهتم. إذْ أنه لم يعد يعترف بسلطة البابا. ثم انطلق لينفصل عن كنيسة الرومان الكاثوليك، ويؤسس كنيسة إنكلترا بدلاً منها، مع جعل الملك رئيساً لهذه الكنيسة الجديدة. وهكذا لم يكن مستغرباً أن تعلن كنيسة إنكلترا الحديثة التكوين آن بولين مكلةً شرعيةً لإنكلترا.

وجرب البابا كل تهديد في وسعه، ولكن لم ينجح أي شيء. فقد تجاهله هنري ببساطة. واستشاط كليمنت غضباً. فلم يسبق أن عامله أحد بمثل هذا الاحتقار. فقد أذلّه هنري، ولم يكن لديه سلطة يلجأ إليها.

وفي هذا الرأي فإن من المستحسن أن تجعل كل معارفك ـ رجالاً كانوا أم نساءً ـ يشعرون بين الحين والآخر أنك تستطيع بسهولة أن تستغني عن صحبتهم. إذ أن ذلك من شأنه أن يعزز الصداقة. بل إنه لا ضرر ـ في حالة معظم الناس ـ من أن تخلط في تعاملك معهم شيئاً من الازدراء أحياناً، فذلك يجعلهم يزيدون في تقدير صداقتك. وعلى حد قول المثل الإيطالي: احتقِرْ تُحْتَرَمْ. ولكن إذا كان تقديرنا عالياً جداً لشخصٍ ما في الحقيقة، فإن علينا أن نخفي ذلك عنه كأنه جريمة. وليس ذلك عملاً مرضياً، ولكنه صحيح. فالكلب لا يطيق أن يتلقى معاملة طيبة أكثر مما ينبغي، فما بالك بالإنسان؟!

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

فحتى الحرمان (الذي كان يهدد به باستمرار، ولكنه لم ينفذه قط) لم يعد يؤثر.

وشعرت كاترين باللدغة المدمرة لاحتقار هنري لها. وحاولت أن تقاوم. ولكن مناشدتها لهنري وقعت على أذن صمّاء. وسرعان ما لم تعد تقع على أي أُذُن. وإذْ عُزِلَتْ كاترين عن البلاط، وتجاهَلَها الملك، وجُنَّت من الغضب والإحباط، راحت صحتها تتدهور، وأخيراً ماتت في كانون الثاني/ يناير سنة 1536، من ورم سرطاني في القلب.

التفسير

عندما تهتم بشخصٍ مّا، فإنكما تصبحان شريكين من نوعٍ مّا. وكل منكما يتحرك في إيقاعٍ يتمشّى مع أفعال الآخر وردود أفعاله. وفي هذه العملية، فإنك تفقد زمام المبادرة. فهذه هي الحركة الحيوية لكل التفاعلات: فباعترافك بالناس الآخرين، حتى ولو لمقاتلتهم، فإنك تعرض نفسك لتأثيرهم. ولو اشتبك هنري مع كاترين، لوجد نفسه غارقاً في مجادلات لا نهاية لها، تضعف تصميمه وترهقه حتى السقوط في آخر الأمر (فقد كانت كاترين امرأة قوية عنيدة). ولو شرع بإقناع كليمنت بتغيير حكمه حول صحة الزواج، أو لو حاول المساومة والتفاوض معه، لوقع ضحية واحدة من الخطط التكتيكية المفضلة لدى كليمنت: وهي المناورة لكسب الوقت، والوعد بالمرونة، ولكن مع الحصول على ما يحصل عليه البابوات في الواقع دائماً ـ وهو ما يريدونه.

القرد والحمّص
يحكى أن قرداً كان يحمل حفنتين من الحمص، فسقطت منه حبّة حمص صغيرة، فحاول أن يلتقطها، فسقطت منه عشرون حبة، فحاول أن يلتقط العشرين، وعندئذٍ سقط منه الحمص كله، ففقد هدوءه واحتدّ طَبْعُهُ، وبعثر حبّات الحمص في جميع الاتجاهات وولّى هارباً.
خرافات
ليوتو لستوي
1828 ـ 1910

ولكن هنري لم يكن يريد أيّ شيء من هذا القبيل. فمارس لعبة السلطة المدمِّرة ـ وهي الاحتقار الكامل. إنك بتجاهل الناس تلغيهم تماماً من الحساب. وهذا يفقدهم استقرارهم ويثير ثائرتهم. وهذا الموقف هو الغاية القصوى في السلطة: فأنت الملك، وأنت تتجاهل ما يضايقك. فارقب كيف يغضب هذا التكتيك الناس. فنصف ما يفعلونه

يهدف إلى كسب اهتمامك، وعندما تحجبه عنهم، فإنهم يتخبطون في الإحباط والخيبة.

الإنسان: ارفسه ـ وسوف يسامحك. تملقه . فقد يكشفك أو لا يكشفك. ولكن تجاهله، وسيكرهك.

(إدريس شاه: قافلة الأحلام، 68)

مفاتيح السلطة

كثيراً ما تخلق الرغبة تأثيرات متناقضة: فكلما زادت رغبتك في شيء، وزادت ملاحقتك له، ازداد تهرباً منك. وكلما زاد الاهتمام الذي تظهره، زاد صدّك لغرض رغبتك. وذلك لأن رغبتك أقوى من اللازم ـ فهي تجعل الناس مرتبكين، وحتى خائفين. فالرغبة الخارجة عن السيطرة تجعلك تبدو ضعيفاً، وتافهاً، ومثيراً للرثاء.

إنك بحاجة إلى أن تدير ظهرك لما تريده، وأن تظهر احتقارك وازدراءك. فهذا هو نوع الردّ الذي يصيب أهدافك بالجنون. فيردون برغبة منهم: هي أن يكون لهم ـ ببساطة . تأثير عليك ـ ربما لامتلاكك، وربما لإيذائك. فإن أرادوا امتلاكك فإنك تكون قد استكملت الخطوة الأولى في إغوائهم. وإن يريدوا إيذاءك فإنك تكون قد أقلقتهم وجعلتهم يلعبون وفق قواعدك (انظر القانونين 8 و39 حول إغراء الناس باتخاذ إجراء).

فالاحتقار امتياز للملك. فحيثما تدور عيناه، فإن ما يقرر أن يراه هو ما فيه الحقيقة؛ وما يتجاهله ويدير له ظهره يصير كالميت سواء بسواء. ولقد كان ذلك هو سلاح الملك لويس الرابع عشر ـ فإذا لم يحبّك، تصرّف وكأنك غير موجود، محتفظاً بتفوقه عن طريق قطع آلية حركة التفاعل. فهذه هي السلطة التي تملكها عندما تلعب ورقة الاحتقار، مظهراً للناس بين حين وآخر أنك قادر على الاستغناء عنهم.

وإذا كان اختيار التجاهل يوسع سلطتك، فإنه يتبع ذلك أن النهج

مثلما يحوّل بعضُ الناس كلّ شيء إلى إشاعات، فإن هناك آخرين يخلقون ضجة كبرى حول كل شيء. فهم يتشدّقون دائماً بكلمات كبيرة [و] يأخذون كل شيء على محمل الجد، فيجعلون منه شيئاً غامضاً وموضوعاً للشجار، وينبغي عليك أن لا تجعل أي مظلمة تؤثر فيك، لأنك إن فعلت فستعطي نفسك قلقاً لا أساس له. وإنه لسلوك مقلوبٌ رأساً على عقب أن تؤثر في قلبك تأثيراً شديداً همومٌ كان الأحرى بك أن ترميها وراء ظهرك. فكثير من الأشياء التي كانت تبدو هامة [في حينها] يتضح أنه لا أهمية لها عندما يتجاهلها المرء، بينما توجد أشياء أخرى تبدو تافهة ثم يظهر أنها رهيبة عندما تعيرها اهتمامك. ويمكن تسوية الأشياء بسهولة إذا عولجت في بدايتها، ولكن ليس كذلك فيما بعد. وفي كثير من الأحيان يكون الدواء هو سبب الداء. إن ترك الأشياء على حالها ليس أقل قواعد الحياة مدعاةً للرضا.

بلتازار غراسيان
1601ـ 1658

المعاكس ـ أي الالتزام والاشتباك . كثيراً ما يضعفك. فإعطاء اهتمام غير لائق لعدو ضئيل يجعلك أنت تبدو ضئيلاً. وكلما زاد الزمن الذي تستغرقه في دحر هذا العدو زاد الحجم الذي يظهر به العدو. فعندما انطلقت أثينا لتغزو جزيرة صقلية في سنة 415 ق .م، كانت هناك قوة عملاقة تهاجم قوة ضئيلة. ومع ذلك فقد استطاعت سيراكيوز، أهم مدينة ـ دولة في صقلية، أن تتنامى في حجمها وثقتها عن طريق إرغام أثينا على الاشتباك معها في صراع طويل متمادٍ في استمراره. وأخيراً فإنها بدحر أثينا جعلت نفسها مشهورة عبر قرون لاحقة. وفي العصر الحديث، ارتكب الرئيس جون فيتزجيرالد كيندي غلطة مماثلة في موقفه من فيدل كاسترو في كوبا، إذ أن غزوه الفاشل في خليج الخنازير سنة 1961، قد جعل كاسترو بطلاً دولياً.

وهناك خطر ثان: إذا نجحتَ في سحق العنصر المضايق لك، أو حتى إذا جرحته فقط، فإنك تخلق تعاطفاً مع الطرف الأضعف. فقد اشتكى نقّاد الرئيس الأميركي فرانكلين ديلانو روزفلت بمرارة من الأموال التي صرفتها إدارته على المشاريع الحكومية. ولكن هجماتهم لم تجد صدى لدى عامة الناس، الذين كانوا يرون أن الرئيس يعمل لإنهاء الكساد الأعظم. وقد ظنّ خصومه أن لديهم مثالاً سيوضح إلى أي مدىً أصبح روزفلت مبذراً: وكان ذلك المثال هو: كلبه فالا، الذي كان الرئيس يعطيه اهتماماً وحظوة بشكل سخيّ. فهاجم النقاد انعدام إحساس روزفلت، الذي يصرف أموال دافعي الضرائب على كلب، بينما لا يزال كثير من الأميركيين يعانون من الفقر. ولكن روزفلت كان لديه رد: «كيف يجرؤ نُقّادُهُ على مهاجمة كلب صغير لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟». فكانت خطبته دفاعاً عن فالا من أكثر خطبه شعبية. وفي هذه الحالة كان الطرف الأضعف في المسألة هو كلب الرئيس. فأدى الهجوم عليه إلى نتيجة عكسية . مما جعل الرئيس على المدى البعيد أكثر تعاطفاً، لأن كثيراً من الناس ينحازون بطبيعة الحال إلى الطرف

الأضعف، تماماً كما تعاطف عامة الأميركيين مع بانشو فيلاّ، الذي كان ماكراً، ولكنه ضحية أعداء يفوقونه عدداً.

إن من المغري أن نرغب في إصلاح أخطائنا. ولكن كلما زادت محاولاتنا جدّيّة، جعلنا الأخطاء تبدو أسوأ على الأغلب. بل إن ترك الأخطاء على حالها قد يكون أكثر حصافة أحياناً. ففي سنة 1971، عندما نشرت صحيفة النيويورك تايمز أوراق البنتاغون عن تاريخ تورط الولايات المتحدة في الهند الصينية، انفجر هنري كيسنجر في غضب بركانيّ. فقد ثارت ثائرته حول انكشاف إدارة نيكسون بتعرضها لهذا التسريب المؤذي، فقدم توصيات، أدّت في آخر الأمر، إلى تشكيل المجموعة التي عرفت باسم «السبّاكين» لسد الثقوب التي يأتي منها التسريب. فكانت تلك الوحدة هي التي اقتحمت مكاتب الحزب الديمقراطية في فندق ووترغيت، مما فجّر سلسلة الأحداث التي أدت إلى سقوط نيكسون. والواقع أن نشر أوراق البنتاغون لم يشكل تهديداً خطيراً للإدارة؛ ولكن رد فعل هنري كيسنجر، جعل منها قضية كبرى. وفي محاولته حل مشكلة، خلق مشكلة أخرى: هي جنون الارتياب في الآخرين حول الأمن، وهو جنون صار في النهاية أكثر تدميراً للحكومة. ولو أنه تجاهل أوراق البنتاغون، لانطفأت الفضيحة التي خلقتها من تلقاء نفسها في آخر الأمر.

وبدلاً من تركيز الانتباه من غير قصد على مشكلةٍ مّا، بجعلها تبدو أسوأ من خلال الحديث علناً عن مدى القلق والانزعاج الذي تسببه لك، فإنه كثيراً ما يكون من الأعقل أن تلعب دور الأرستقراطي الذي يحتقر هذه الصغائر، فلا يتنازل بالاعتراف بوجود المشكلة أصلاً. وهناك طرق عديدة لتنفيذ هذه الاستراتيجية.

هناك أولاً: نهج الحصرم. فإذا كان هناك شيء ترغب فيه، ولكنك تدرك أنك لا تستطيع امتلاكه، فإن أسوأ شيء يمكنك أن تفعله هو جذب الانتباه إلى خيبة أملك بالتذمّر حول هذا الأمر. والخطة الأقوى من

الرجل وظله

كان هناك رجلٌ أصيل معين يرغب في الإمساك بظلّه. فيخطو نحوه خطوة أو خطوتين، ولكن الظل يبتعد عنه، فيسرع خطوته؛ فيفعل الظل كذلك. وأخيراً يشرع في الجري. ولكنه كلما زاد سرعته، كانت تزداد سرعة الظل أيضاً، لأنه كان يرفض أن يستسلم لصاحبه، وكأنه كنز. ولكن انظر! إن صديقنا الغريب الأطوار يستدير ويركض هارباً من ظله، ثم ينظر إلى الخلف، فيجد أن ظله يجري خلفه

يا سيداتي الحميلات، كثيراً ما كنت ألاحظ... أن الثروة تعاملنا بطريقة مماثلة فيحاول رجلٌ مّا بكل قوته أن يمسك بها، فلا يجد سوى أنه قد أضاع وقته وجهده. بينما يحاول آخر، حسبما تدل عليه المظاهر كلها أن يهرب بعيداً عن أنظارها؛ ولكن كلاّ... فهي نفسها تجد مسرّةً في مطاردته.

خرافات
إيفان كريلوف،
1844 - 1768

ذلك، بلا حدود، هي التصرف، وكأن ذلك الشيء لم يثر اهتمامك أصلاً. فعندما قام مؤيدو الكاتبة الفرنسية جورج صاند بترشيحها كأول أنثى لعضوية الأكاديمية الفرنسية في سنة 1861، رأت صاند بسرعة أن الأكاديمية لن تقبلها. وبدلاً من الأنين والانتحاب، ادعت أنها غير مهتمة بالانتساب إلى مجموعة من المتبجحين الثرثارين المهترئين المبالغ في قيمتهم والفاقدي الصلة بالواقع. فكان احتقارها هو الردّ الكامل على ذلك. ولو أظهرت غضبها على استبعادها لكشفت مدى ما كان يعنيه لها الانتساب للأكاديمية. وبدلاً من ذلك، فقد وصمت الأكاديمية بأنها نادٍ للعجائز ـ فلماذا تغضب أو تصاب بخيبة الأمل على عدم الاضطرار إلى قضاء وقتها معهم؟ إن الصراخ: «هذا حصرم» قد يُرَى أحياناً بأنه رد فعل الضعيف: بل هو في الواقع تكتيك القوي.

وثانياً: عندما تأتي مذمتك من ناقص، حَوِّل اهتمام الناس بالتوضيح بأن هذا الهجوم لم يسجل ولم يترك أثراً. حوّل نظرك بعيداً أو أعطِ جواباً حلواً يبيّن كيف أن الهجوم لا يثير قلقك. وبالمثل فعندما ترتكب غلطة، فإن أحسن ردّ عليها كثيراً ما يكون هو التقليل من شأنها ومعاملتها باستخفاف.

كان الإمبراطور الياباني غو ـ صايين، وهو من كبار أتباع حفلة الشاي، يملك إناءً للشاي قديماً لا يقدر بثمن يحسده عليه كل رجال حاشيته. وذات يوم سأل ضيفٌ له يدعى ديناغون تسوينهيرو عما إذا كان يستطيع حمل ذلك الإناء إلى الضوء ليتفحصه بشكل دقيق. ولم يكن الإناء قد ابتعد عن الطاولة إلاَّ نادراً. ولكن الإمبراطور كان في مزاج رائق، فوافق. غير أنه عندما حمل ديناغون الإناء إلى حاجز الشرفة ورفعه نحو الضوء، انزلق من يديه وسقط على صخرة في الحديقة في الأسفل فتحطم إلى قطع صغيرة.

وثارت ثائرة الإمبراطور طبعاً. فقال ديناغون: «إنه لعملٌ أخرق أن أُسقِط الإناء من يدي بهذه الطريقة». وانحنى انحناءة عميقة وتابع يقول:

«ولكن لم يحدث ضرر كبير، إذْ أن هذا الإناء عتيق جداً، ومن المستحيل معرفة كم من الزمن كان سيستمر، وهو على أية حال ليس شيئاً ذا نفع عام، ولذا فإني أعتقد أن من حسن الحظ أنه انكسر هكذا». وكان لهذا الردّ المستغرب تأثير فوريّ. فهدأ الإمبراطور. إذْ أن ديناغون لم يُعْوِلْ بالبكاء ولم يعتذر بشكل مفرط، بل عرض قيمته وقوته بمعاملة غلطته بلمسة احتقار. فكان على الإمبراطور أن يستجيب بقلّة مبالاة أرستقراطية مماثلة، لأن غضبه قد جعله يبدو وضيعاً وصغيراً ـ وهذه صورة استطاع ديناغون أن يتلاعب بها.

وقد تكون لهذا التكتيك نتائج عكسية بين المتساوين. ذلك أن عدم مبالاتك قد تجعلك تبدو ضعيفاً. أما مع سيِّدٍ مّا، فإنك إذا تصرفت بسرعة ودون ضجة كبيرة، فإن هذا التكتيك قد ينجح بفعاليةٍ عظيمة، إذْ أنك تتجاوز استجابته الغاضبة، وتوفر عليه الوقت والطاقة اللذين كان سيهدرهما في التفكير المكتئب بالغلطة، وتتيح له فرصة الاستعراض العلني لكونه غير صغير ولا ضيق الأفق.

إذا قدمنا حججاً وإنكارات عندما نُضْبَطُ متلبسين بغلطة أو خديعة، فإننا نعكِّر المياه ونجعل الوضع أسوأ. فكثيراً ما يكون من الأعقل والأحكم أن نوجه الأمور في الاتجاه المعاكس. فكثيراً ما كان كاتب عصر النهضة بييترو آريتينو يتفاخر بأصله الأرستقراطي الذي كان بالطبع خيالاً، لأنه كان في الحقيقة ابن إسكاف. وعندما كشف أحد أعدائه في آخر الأمر هذه الحقيقة المحرجة، انتشر الخبر بسرعة. وسرعان ما صارت البندقية كلها (حيث كان آريتينو يعيش آنذاك) مشدهوة بأكاذيبه. ولو حاول أن يدافع عن نفسه، لما زاد على إنزال نفسه إلى الحضيض. فكانت استجابته ضربة معلِّم. إذْ أعلن أنه ابن إسكاف حقاً. ولكن ذلك إنما يثبت عظمته، ما دام قد صعد من أحطّ طبقات المجتمع إلى قمَّته نفسها. ومنذ ذلك الحين لم يعد يذكر كذبته السابقة، وراح بدلاً من ذلك يطبِّل لموقفه الجديد من قضية أصله العائلي.

تذكَّر: إن الردود القوية على المنغّصات والمزعجات الصغيرة والحقيرة هي الاحتقار والازدراء. فإياك أن تظهر أن شيئاً ما قد أثر فيك أو أنك متضايق ـ لأن ذلك يبيِّن أنك تعترف بمشكلة. فالاحتقار طبق من الأفضل أن يقدم بارداً وبلا تكلّف أو تصنّع.

صورة:
الجرح الصغير.

إنه صغير، ولكنه مؤلم ومزعج. وأنت تجرب كل
أنواع الادوية، فتتذمَّر، وتحك، وتنقر قشرة الجرح.
والأطباء لا يفعلون شيئاً سوى جعله أسوأ، محوِّلين
الجرح الضئيل إلى قضية خطيرة. ولو أنك تركت الجرح
على حاله، لتكفل الزمن بشفائه، ولحرَّرت نفسك من القلق.

الشاهد: اعرف كيف تلعب ورقة الاحتقار. فهو أكثر أنواع الانتقام حصافة. ذلك أن هناك كثيرين ما كنّا لنعرف عنهم شيئاً لو أن خصومهم المتميزين تجاهلوهم ولم يلاحظوهم. فليس هناك انتقام مثل النسيان، لأنه يعني دفن التافهين في تراب عَدَمِهم نفسه.

(بلتازار غراسيان، 1601. 1658)

الانقلاب

عليك أن تلعب ورقة الاحتقار بحرص ودقة. فمعظم المتاعب الصغيرة ستختفي من تلقاء نفسها إذا تركتها وشأنها؛ ولكن بعضها ستنمو وتتقرَّح ما لم تهتم بها. وإذا تجاهلت شخصاً أصغر منك حجماً ومكانة، فقد تفاجأ عندما تنظر إليه مرة أخرى بأنه صار منافساً خطيراً، وقد جعله احتقارك إياه نزَّاعاً إلى الانتقام كذلك. لقد اختار كبار أمراء إيطاليا في عصر النهضة أن يتجاهلوا سيزار بورجيا في مطلع حياته العملية كقائد شاب لجيش والده البابا آليكساندر السادس. وما إن حان وقت إبداء

اهتمامهم به، حتى كان الأوان قد فات، فقد صار الشبل أسداً، راح يلتهم قطعاً من إيطاليا. ولذا فكثيراً ما يتعيَّن عليك، أثناء إظهار الاحتقار علانية، أن تبقي عينيك مفتوحتين لمراقبة المشكلة سراً، فتلاحظ حالتها وتتأكَّد من اختفائها. فلا تتركها تتحوَّل إلى خلية سرطانية.

طوِّر براعة استشعار المشاكل وهي لا تزال صغيرة، والاهتمام بمعالجتها قبل أن تصبح متابعتها مستحيلة. وتعلَّم التمييز بين ما هو محتمل أن يؤدي إلى كارثة، وبين ما هو مجرَّد إزعاج طفيف يسبِّب شيئاً من المضايقة الآنية، ولكنه يزول بهدوء من تلقاء نفسه. وفي الحالتين إياك أن تبعد عينيك عن الأمر تماماً. فما دامت المشكلة حيَّة، فإنها قد تخمد بدخانٍ تشتعل فيه شرارة تجعلها تنفجر بالحياة.

القانون

37

اخلق مشاهد آسرة

الحكم

إن الصور المدهشة الأخاذة والإشارات الرمزية الكبرى تخلق هالة من السلطة ـ فكل شخص يستجيب لها. فاعرض مشاهد آسرةً على مَنْ حولك، مليئة بالتصورات الرائعة اللافتة للانظار والرموز المشعة التي ترفع مستوى حضورك. فعندما ينبهر الناس بالمظاهر، فلا أحد سيلاحظ ما الذي تفعله في الحقيقة.

مراعاة القانون الأولى

في مطلع ثمانينيات القرن الثامن عشر، انتشر في برلين خبر عن ممارسة طبيّة غريبة لافتة للأنظار يقوم بها شخص يدعى الدكتور فيزلدر. فكان يؤدي معجزاته في قاعة ضخمة للجعة تم تحويلها لذلك الغرض، وقد بدأ البرلينيون يلاحظون في خارجها صفوفاً من الناس آخذة في الطول أكثر فأكثر ـ من العميان، والعرجان، وأي شخص يشكو من مرض لا علاج له بالأدوية العادية. وعندما رشح خبر بأن الطبيب يعمل بتعريض المريض لأشعة القمر، فسرعان ما صار يلقب بطبيب القمر في برلين.

وفي وقتٍ مّا من سنة 1783، قيل بأن الدكتور فيزلدر قد شفى امرأة ثرية من مرض رهيب. فصار شخصاً مشهوراً فجأة. ففي السابق لم يكن يشاهَد خارج قاعة الجعة سوى البرلينيين الفقراء ينتظرون في أسمالهم؛ أمّا الآن، فقد راحت عربات فارهة فخمة تتوقف في الخارج. وأخذ سادة بسترات سوداء طويلة، وسيِّدات بتسريحات شعر هائلة يصطفون في الشارع مع اقتراب غروب الشمس. وحتى الناس المصابون بأخف الأمراض كانوا يأتون بدافع من الفضول المحض. وبينما كانوا ينتظرون في الصف، كان الزبائن الأفقر يشرحون للسادة والسيدات أن الطبيب لا يمارس إلاَّ عندما يكون القمر في مرحلة التنامي. وكان كثيرون يضيفون بأنهم أنفسهم قد تعرَّضوا للقوى الشافية التي كان يستدعيها من أشعة

انطونيو وكليوباترا

كانت تعتمد قبل كل شيء على حضورها الجسدي وسحره والفتنة التي يخلقها . . . فجاءت مبحرة على صفحة نهر سيدنوس في بارجة مؤخرتها من ذهب، وقد انتفخت أشرعتها الأرجوانية بفعل الريح، بينما كان مجذفوها يربُّون على الماء برفق بمجاذيفهم الفضية التي كانت تنغمس في الماء على إيقاع موسيقى الفلوت تصحبه النايات والعيدان. وكانت كليوباترا نفسها متكئة تحت مظلة من القماش المذهب، مرتدية زي أفروديتي، كما نرى في صورها، ولاستكمال الصورة كان يقف على الجانبين أولادٌ يرتدون زي كيوبيد، يبردونها بمراوحهم. وبدلاً من الطاقم الملاحي، كانت البارجة مليئة بأجمل وصيفاتها المرتديات أزياء الحوريات وإلهات الحسن والجمال، وقد وقفت بعضهن عند الدفة، وأخريات عند حبال الأشرعة، وطيلة الوقت كان هناك عطر شديد الغنى لا يمكن وصفه ينبعث من السفينة إلى ضفتي النهر من

القمر. وحتى أولئك الذين شعروا بأنهم قد شُفُوا كانوا يعودون، وقد اجتذبتهم تلك التجربة القوية.

وفي داخل قاعة الجعة كان يستقبل الزائرَ مشهد غريب ومؤثر: فقد كان يحتشد في مدخل القاعة جمهور غفير من كل الطبقات والخلفيات العرقية، فيما يشبه برج بابل حقيقي. وعبر النوافذ الطويلة كانت أشعة القمر الفضيّة تنصبّ إلى الداخل من زوايا غريبة. وكان الطبيب وزوجته، التي كان يبدو أنها هي الأخرى قادرة على إحداث الشفاء، يمارسان في الطابق الثاني الذي يوصل إليه درج عند نهاية القاعة. وبينما راح الصف يقترب من الدرج أكثر فأكثر، كان المرضى يسمعون صرخات وصيحات من الأعلى، فتنتشر الأخبار أن ذلك ربما كان سيداً قد استعاد بصره فجأة.

وعند الوصول إلى الأعلى كان الخط يتشعب في اتجاهين، نحو غرفة شمالية للطبيب، وغرفة جنوبية لزوجته، التي كانت تعالج السيدات فقط. وأخيراً، وبعد ساعات من الترقب والانتظار في الصف، كان المرضى من السادة يقادون للمثول بين يدي الطبيب المذهل نفسه، وهو رجل كبير السن، له خصلات شعثاء من الشعر الرمادي ويشيع حوله جوّ من الطاقة العصبية. فيأخذ المريض (ولنقل إنه صبي صغير جاء به إليه والده)، فيكشف عن الجزء المصاب من جسمه، ويرفعه إلى النافذة التي تواجه ضوء القمر. فيفرك موضع الإصابة أو المرض، وهو يغمغم بكلام غير مفهوم، وينظر إلى القمر بطريقة العارفين، ثم بعد أن يتقاضى أجره يرسل الولد وأباه إلى حال سبيلهما. وفي تلك الأثناء، في الغرفة المواجهة للجنوب، تفعل زوجته الشيء نفسه للسيدات ـ وكان ذلك غريباً، لأن القمر لم يكن ليظهر في مكانين في الوقت نفسه، وبعبارة أخرى: إنه لا يمكن أن يكون مرئياً من النافذتين. ويبدو أن فكرة القمر المجردة ورمزه، وحضوره في الذهن كانت كافية. ذلك أن السيدات لم

عددٍ لا يحصى من المباخر. ورافقت هذا الموكب الملكي حشود عظيمة، بعضها كان يشيع الملكة على جانبي النهر من عند المصب نفسه، بينما هرج آخرون قادمين من مدينة طرسوس ليلقوا نظرة على المشهد. وبالتدريج غادرت الجموعُ مكان السوق، حيث كان أنطونيو ينتظر الملكة وهو متربع على كرسي مجلسه، حتى بقي جالساً وحده في آخر الأمر. وانتشر الخبر في كل جانب بأن أفروديتي قد جاءت لتعربد مع ديونيسوس لإسعاد آسيا ثم أوسل أنطونيو رسالة يدعو فيها كليوباترا للغداء معه. غير أنها كانت ترى أن الأليق أن يأتي هو إليها. وهكذا رغب في إظهار كياسته وحسن نيته فقَبِلَ وذهب إليها. فرأى أن استعدادات استقباله كانت أروع من أن تصفها الكلمات ولكن كان أكثر ما أذهله هو عدد الأضواء الخارق للعادة. وقيل إن كثيراً منها كان يتدلى من السطح معروضاً من كل الجوانب دفعة واحدة. وقد صففت وجمعت بأنماط بديعة حسب علاقاتها ببعضها بعضاً، بعضها في مربعات، وبعضها في دوائر، فخلقت مشهداً كأروع ما يمكن تدبيره لإمتاع عين الناظر.

حياة أنطونيو
بلوتارخ، حوالى 46 ـ 120م

يكنَّ يتذمَّرن، بل كنَّ يلاحظن فيما بعد بثقة أن زوجة طبيب القمر كانت لديها قوى الشفاء نفسها التي لديه.

التفسير

ربما لم يكن الدكتور فيزلدر يعرف شيئاً عن الطب. ولكنه كان يفهم الطبيعة البشرية. فكان يدرك أن الناس لا يريدون دائماً وصفاً، أو شروحاً عقلانية، أو عروضاً لقوى العلم؛ بل يريدون مخاطبة مباشرة لعواطفهم. فاعطهم هذا وسوف يتكفلون بعمل الباقي ـ كالتخيّل بأنه يمكن أن يشفيهم الضوء المنعكس من صخرة على بعد ربع مليون ميل. فلم يكن الدكتور فيزلدر بحاجة إلى أقراص، أو إلى محاضرات متطاولة عن قوة تأثير القمر، أو إلى أية أدوات سخيفة لتكبير أشعته. بل كان يفهم أنه كلما كان المشهد أبسط، كان ذلك أفضل. ـ فقط ضوء القمر ينثال من الجانب، والدرج المؤدي إلى السموات، وأشعة القمر، سواء أكانت مرئية بشكل مباشر أم لا. فأي تأثيرات إضافية كانت ستجعل القمر يبدو كأنه ليس قوياً لوحده بما فيه الكفاية. والقمر **قوي** قوة كافية ـ إنه مغناطيس للخيالات، كما كان عبر عصور التاريخ. فقد حصل الطبيب على السلطة بمجرَّد ربط نفسه بصورة القمر.

تذكَّر: إن بحثك عن السلطة يعتمد على الطرق المختصرة. وعليك دائماً أن تتغلَّب على شكوك الناس بالمراوغة، وكذلك على رغبتهم في مقاومة إرادتك. والصور طريق مختصر فعَّال للغاية. فهي تتجاوز الرأس، الذي هو محطّ التشكك والمقاومة، وتستهدف القلب رأساً. فالصور تغلب على العين، فتخلق ترابطات قوية، وتجمع الناس معاً فتحرِّك عواطفهم. فعندما يشع ضوء القمر الأبيض في أعين ضحاياك، فإنه يعميهم عن الأحابيل التي تمارسها.

مراعاة القانون الثانية

في سنة 1536، اتخذ هنري الثاني، الذي كان سيصبح ملك فرنسا

فيما بعد، أول عشيقة له، وهي ديان دي بواتييه، التي كانت في السابعة والثلاثين آنذاك، وكانت أرملة قهرمان نورماندي. وكان هنري في ذلك الوقت فتىً مفعماً بالحيوية في السابعة عشرة، وقد بدأ ينغمس في شهوات الشباب. وكانت علاقتهما في بادىء الأمر تبدو أفلاطونية، حيث يُظْهِر هنري تكريساً روحياً لديان. ولكن سرعان ما اتضح أنه يحبها بكل طريقة، مفضِّلاً فراشها على فراش زوجته الشابة، كاترين دي مديتشي.

وفي سنة 1547، مات الملك فرانسيس، فصعد هنري الثاني إلى العرش، وشكَّل هذا الوضع الجديد أخطاراً على ديان دي بواتييه. فقد وصلت إلى الثامنة والأربعين من عمرها. وعلى الرغم من حمَّاماتها الباردة اللعينة، ووصفات الشباب المنشطة التي كانت تتعاطاها، فقد بدأ أثر السن يظهر عليها؛ أما وقد أصبح هنري ملكاً، فلعله سيعود إلى فراش الملكة ويفعل ما فعله الملوك الآخرون، أي يختار عشيقات من عناقيد الصبايا الجميلات اللواتي جعلن البلاط الفرنسي محط حسد أوروبا. فبعد كل شيء كان هنري في الثامنة والعشرين ما يزال، وله شخصية مندفعة. ولكن ديان لم تستسلم بسهولة. فقررت أن تستمر في أسر عشيقها، كما كانت تفعل طيلة الأعوام الأحد عشر السابقة.

كان الموقف الرمزي أكثر حضوراً وظهوراً في العصور الوسطى... فالرمزية تظهر كنوع من طريق الفكر المختصر. فبدلاً من البحث عن العلاقة بين شيئين بمتابعة المنعطفات الخفية لترابطاتها السببيّة، يقفز الفكر ليكتشف علاقتها ليس من خلال السبب والنتائج، ولكن بربطها بالمغزى... فالفكر الرمزي يسمح بعلاقات لا نهاية لها بين الأشياء. وكل شيء قد يوحي بعدد من الأفكار المحددة والمتميزة عن طريق

وكانت أسلحتها السرية رموزاً وصوراً كانت دائماً تعيرها اهتماماً كبيراً. ففي وقت مبكر من علاقتها بهنري كانت قد خلقت فكرة رئيسية من تشبيك الحروف الأولى من اسمها بالحروف الأولى من اسمه كي ترمز لاتحادهما. فنجحت الفكرة مثل السحر: فقد كان هنري يضع رموز اسمه في كل مكان ـ على الأثواب الملكية، على الآثار والنُّصُب، على الكنائس، على واجهة اللوفر الذي كان آنذاك هو القصر الملكي في باريس. وكان اللونان المفضلان لدى ديان هما الأبيض والأسود. فكانت ترتديهما حصراً، وحيثما كان ذلك ممكناً كانت الشارات تظهر بهذين اللونين. وكان الجميع يعرفون الرمز ومعناه: وبعد استلام هنري للعرش خَطَتْ ديان أبعد من ذلك، فقرَّرت أن تشبّه نفسها بدايانا، سَمِيَّتها وإلهة

الصيد عند الرومان، وكان الصيد من الناحية التقليدية هو طريقة اللهو التي يزجي بها الملوك أوقاتهم. وكان هنري يحبه بشكل خاص. وكان مما يعادل ذلك في الأهمية أن دايانا في فنون العصور الوسطى كانت ترمز للطهر والنقاء والفضيلة. فعندما تقوم امرأة مثل ديان بتشبيه نفسها بتلك الإلهة، فإن ذلك يستدعي في الذهن على الفور تلك الصور في البلاط، مما يحيطها بجوٍّ من الاحترام. وعندما يرمز ذلك إلى علاقتها «الطاهرة» بهنري فإنه سيفصلها عن ارتباطات الزِّنَى المتصلة بالعشيقات الملكيات في الماضي.

ولتنفيذ هذا التداعي في الخواطر والأفكار شرعت ديان في إجراء تحويل كامل لقلعتها في آنيت. فسوَّت هيكل البناية بالأرض وأقامت في مكانها صرحاً رائعاً ذا أروقة فيها أعمدة مصممة حسب نموذج معبد روماني. وقد شيِّدت بحجر نورماندي الأبيض المرقش بزجاج أسود مقاوم للحرارة، مما يعطي نسخاً عن ألوان ديان المرتبطة باسمها من أبيض وأسود. وظهرت شارات الحروف الأولى من اسمها واسم هنري على الأعمدة، والأبواب، والنوافذ، والسجاد. وفي الوقت نفسه فإن رموز دايانا من الأهلّة، والغزلان وكلاب الصيد زيّنت البوابات والواجهة. أما في الداخل فكانت هناك صور زخرفية هائلة تصوِّر وقائع من حياة الإلهة، ملقاة على الأرض أو معلَّقة على الجدران. وفي الحديقة كان ينتصب تمثال دايانا المطارِدَة، المحفوظ الآن بمتحف اللوفر، والذي فيه شبه غريب من ملامح ديان دي بواتييه. وكانت هناك نوحات وأشياء أخرى تصف إلهة الصيد دايانا مبعثرة في كل زاوية من القلعة.

وقد غلبت آنيت على هنري، الذي سرعان ما راح يروِّج لصورة ديان دي بواتييه على أنها إلهة رومانية. وفي سنة 1548، عندما ظهر الاثنان في ليون لحضور احتفال ملكي، رحَّب بهما أهل المدينة بلوحة حيَّة تصوِّر مشهداً من حياة دايانا كصيَّادة. وبدأ بيير دي رونسار، أعظم

مواصفاته الخاصة المختلفة. وقد يكون لخاصيّةٍ ما معانٍ رمزية متعدّدة. فأعلى المفاهيم لها رموز تعد بالآلاف. فلا شيء يعتبر متواضعاً إلى حد أنه لا يصلح لأن يرمز للجليل السامي ويمجّده. فالجوزة تمثل المسيح وتشير إليه. إذ إن لبّها الحلو طيبته السماوية، والقشرة العجيبة الخارجية الخضراء إنسانيته، والقشرة الخشبية التي بينهما ترمز للصليب. وهكذا فإن كل الأشياء ترفع تفكير المرء إلى الخالق الأزلي... وكل حجر كريم، بالإضافة إلى روعته الطبيعية، يلتمع بسطوع قيَمِهِ الرمزية. فتشبيه الورود بالعذرية هو أكثر بكثير من مقارنة شعرية، لأنه يكشف عن الجوهر المشترك بينهما، ومع نشوء كل فكرة في الذهن، يخلق منطقُ الرمزية تناغماً في الأفكار.

أفول العصور الوسطى
جوهان هويزينغا،
1928

شعراء فرنسا في ذلك العصر ينظم قصائد في تكريم دايانا ـ بل لقد نشأ شيء طقوسي حول اسم دايانا إلهة الصيد، أوحت به عشيقة الملك. وبدا لهنري كأن ديان أعطت نفسها نوعاً من الهالة شبه الإلهية، وكأنه مقدر له أن يعبدها طيلة ما بقي من حياته. وقد ظل مخلصاً لها بالفعل حتى وفاته سنة 1559. فجعلها دوقة، وأعطاها ثروة لم يُسْمَعْ بمثلها. وأظهر ما يشبه التكريس الديني تقريباً لعشيقته الأولى والوحيدة.

التفسير

استطاعت ديان دي بواتييه، المرأة ذات الخلفية البرجوازية المتواضعة، أن تأسر هنري الثاني، طيلة أكثر من عشرين عاماً. وعندما مات كانت في أواخر الستينات من عمرها، ومع ذلك كانت عاطفته المشبوبة إزاءها لا تزيدها السنين إلاَّ استعاراً. فقد كانت تعرف الملك جيداً. لم يكن عقلانياً، بل محباً لمشاهد الهواء الطلق ـ وكان يحب مهرجانات الفروسية، والمبارزة على وجه الخصوص، بأعلامها الرياضية البرَّاقة، وخيولها المطهمة اللامعة الزركشات، والنساء بملابسهن الجميلة. وقد بدا لديان أن حب هنري للمشاهد الرائعة بصرياً هو حب طفولي، فاستغلَّت نقطة ضعفه هذه في كل مناسبة.

وكانت أدهى حركة قامت بها ديان هي الاستيلاء على الإلهة دايانا. فبذلك نقلت اللعبة إلى ما وراء الصور الجسدية في الطبيعة، ودخلت بها مملكة الرمز الروحي. ولقد كان إنجازاً كبيراً أن تتحوَّل عشيقة الملك إلى نبراس للسلطة والطهر، ولكنها استطاعت أن تتدبَّر أمر هذا التحوُّل. فبدون رنين صدى الإلهة، لم تكن ديان سوى غانية تدبّ إليها الشيخوخة. أما مع صور دايانا ورموزها على كتفيها، فقد بدت قوةً أسطورية مقدراً لها الوصول إلى العَظَمَة.

وتستطيع أنت أيضاً أن تلعب بصورٍ كهذه فتحوك من الأدلة البصرية شكلاً كلياً شاملاً، كما فعلت ديان بألوانها وشاراتها. فأسِّس علامة رمزية دالَّة عليك كهذه لتفصل نفسك عن الآخرين. ثم خذ اللعبة خطوة أبعد.

قد يخطر ببال المرء هنا ما ترمز إليه الحروف المقطّعة الواردة في أوائل بعض سور القرآن الكريم. وتشبيه الحق عزّ وجل لنوره بالمشكاة والمصباح، وما يقوله البعض من أن رفع اليدين في الدعاء يرمز إلى التوجه إلى الله بأسمائه التسعة والتسعين، نظراً لأن الخطوط في اليد اليسرى تمثل الرقم 81 وفي اليمنى 18، فالمجموع 99. وقبل أكثر من أربعين عاماً قال لي أحدهم إن أحد المعاني العميقة الكامنة في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. . .﴾ هي

فاعثر على صورة أو رمز من الماضي تنطبق على وضعك انطباقاً مناسباً وأنيقاً، ثم ضعها على كتفيك كالرداء. وستجعلك تبدو أكبر من الحياة.

لقد اخترت الشمس كأروع صورة لتمثيل قائد عظيم، بسبب الضوء الذي تشعه على باقي النجوم التي تشكّل نوعاً من البلاط الملتفّ حولها، وبسبب التوزيع العادل والمتساوي لأشعتها على الجميع على حدٍّ سواء، وبسبب الطيبة والجودة التي تجلبها إلى كل الأماكن، فتنتج حياة، ومرحاً، وعملاً، وبسبب استمرارها الثابت الذي لا تحيد عنه قطّ.

(لويس الرابع عشر، الملك الشمس، 1638 ـ 1715)

مفاتيح السلطة

إن استعمال الكلمات للدفاع عن قضيتك عملية خطرة. فالكلمات أدوات خطرة، وكثيراً ما تضل طريقها. والكلمات التي يستعملها الناس لإقناعنا تدعونا بالفعل إلى التأمل فيها والتعليق عليها بكلمات من عندنا. فنحن نفكّر فيها ملياً، وكثيراً ما ينتهي بنا الأمر إلى الاعتقاد بعكس ما يقولون (فذلك جزء من طبيعتنا الفاسدة). كما يحدث أن تجرحنا الكلمات، فتثير تداعيات لم يكن يقصدها المتكلّم.

أما الشيء البصري، من جهة أخرى، فهو يختصر المتاهات الملتوية للكلمات. إذ أنه يضرب بقوة عاطفية وحميمية مباشرة لا تترك ثغرات للتأمّل والشك. ومثل الموسيقى فهو يقفز فوق الأفكار العقلانية والمعقولة وتَصَوَّر طبيبَ القمر يحاول أن يدافع عن ممارساته الطبية، فيحاول إقناع غير المؤمنين بإخبارهم عن القوى الشافية عند القمر وعلاقته الخاصة بهذا الجرم السماوي البعيد. ولحسن حظه، استطاع أن يخلق مشهداً آسراً يجعل الكلمات غير ضرورية. ففي اللحظة التي كان فيها مرضاه يدخلون قاعة الجعة، كانت صورة القمر تتحدَّث إليهم ببلاغة كافية.

إفهم: الكلمات تجعلك في موقف الدفاع. فإذا كان عليك أن

كما يلي: بما أن في حبة التين بذوراً لا تعد ولا تحصى، وفي حبة الزيتون بذرة واحدة، فإن ذلك يعني أن مظاهر الخليقة التي لا تعد ولا تحصى مصدرها هو الواحد الأحد! كما أن حروف كلمة «الله» إذا حذفت واحداً واحداً بقيت الكلمة الدالّة على الله دائماً: فلو حذفنا الألف لبقيت «لله» أي إن كل شيء مملوك لله، ولو حذفنا الألف واللام لبقيت «له» أي لله، ولو حذفنا اللام الأخيرة لبقيت «هُ» (هاء مضمومة تُشْبَعُ ضَمَّتُهَا لتصبح واواً ممدودة فيكون لفظها «هُوَ»). وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد جمع منها بعضهم هذه الجملة في وصف القرآن: «نَصٌّ حَكِيمٌ قَاطِعٌ لَهُ سِرّ».

وعندما شبه ابن الرومي، ممدوحاً له بالشمس أعطى الصورة التالية:

دنوتَ تواضعاً وَعَلَوْتَ مجداً
فسُبْحَانَكَ انحِدَارٌ وارتِفَاعٌ
كذاكَ الشمسُ تَبْعُدُ أن تُسَامَى
ويدنو الضَّوءُ منها والشعاعُ
[المترجم]

كان هناك رجل يدعى ساكامونيا هتشيفوان يعيش في كيوطو العليا [كيوطو هو الاسم القديم لطوكيو] وعندما أقام [الإمبراطور] هيديوشي حفلة شاي العظيمة [شا ـ نو ـ يو] في كيتانو في الشهر العاشر من عام 1588، نَصَبَ هتشيفوان مظلة حمراء عظيمة قطرها ثمة أقدام على عصا ارتفاعها سبعة أقدام وأحاط محيط يدها لحوالي قدمين بسياج من القصب، بطريقة جعلت أشعة الشمس تنعكس منها

وتنشر لون المظلة فيما حولها في كل اتجاه، فبلغ من سرور هيديوشي بهذا التدبير أن أسقط الضرائب عن هتشيغوان كجائزة له على صنيعه.

شا ـ نو ـ يو: حفلة الشاي اليابانية م. ل. سادلر، 1962

توضح نفسك، فإن ذلك يعني أن سلطتك صارت موضع تساؤل. أما الصورة، من جهة أخرى، فإنها تفرض نفسها كما هي معطاة. فهي تثبط الأسئلة، وتخلق تداعيات وارتباطات قوية، وتقاوم التفاسير غير المقصودة، وتتصل بشكل فوري، وتصوغ علاقات تسمو فوق الفوارق الاجتماعية. فالكلمات تثير المجادلات والانقسامات؛ أما الصور فتجمع الناس معاً. إنها الأدوات الجوهرية للسلطة.

والرمز يملك القوة نفسها، سواء أكان بصرياً (كتمثال دايانا)، أو وصفاً لفظياً لشيء بصري (كعبارة: «الملك الشمس»). إن الشيء الرمزي يمثِّل شيئاً آخر، شيئاً مجرَّداً (مثل الصورة «دايانا» ممثلة العفاف). فالمفهوم المجرَّد ـ كالنقاء، والوطنية، والشجاعة، والحب، ـ مليء بالتداعيات والارتباطات العاطفية والقوية. فالرمز طريق مختصر للتعبير يحتوي على عشرات المعاني في عبارة واحدة بسيطة أو شيء واحد بسيط. فرمز الملك الشمس، كما شرحه الملك لويس الرابع عشر، يمكن قراءته على طبقات كثيرة، ولكن جماله في أن تداعياته لا تحتاج إلى شرح، بل إنها تتحدَّث إلى رعاياه مباشرةً، وتميِّزه عن جميع الملوك الآخرين، وتستدعي نوعاً من الجلال يتجاوز الكلمات نفسها. فالرمز يحتوي على سلطة غير محدودة.

إن الخطوة الأولى في استخدام الرموز والصور هي فهم أولوية البصر من بين الحواس. وقبل عصر النهضة، كان هناك جدل في أن البصر والحواس الأخرى ـ كالذوق، واللمس، وغيرها ـ تعمل على مستوى متعادل نسبياً، غير أن المرئي صار هو المسيطر منذ ذلك الحين على الحواس الأخرى، وهو الحاسة التي نعتمد عليها ونثق بها أكثر من الحواس الباقية. وكما قال غراسيان، فإن «الحقيقة تُرَى على وجه العموم، ونادراً ما تُسْمَع». وعندما كان رسام عصر النهضة، فْرَا فيليبّو ليبِّي عبداً مأسوراً بين المغاربة، كسب حريته برسم تخطيطي عمله لسيِّده على جدار أبيض بقطعة من الفحم الحجري؛ وعندما رأى مالكُهُ ذلك

الرسم، فهم على الفور قوة الرجل الذي يستطيع أن يعمل مثل تلك الصور، وأطلق سراح فْرَا ليبِّي. وهكذا كانت تلك الصورة الواحدة أقوى من أي محاولة كان بإمكان الفنان أن يقوم بها بالكلمات.

لا تهمل أبداً الطريقة التي ترتب بها الأشياء بصرياً، فالعوامل، كاللون مثلاً، لها صدىً رمزي هائل. فعندما قام فنان الاحتيال يالوكيد ويل، بإنشاء رسالة إخبارية يعرض فيها البضائع المزيَّفة التي كان يتاجر بها، أطلق عليها اسم «الرسالة الإخبارية الحمراء»، وطبعها بالحبر الأحمر بكلفة كبيرة. فخلق ذلك اللون شعوراً بالاستعجال، والقوّة، والحظ السعيد. إذ أن ويل كان يدرك أن تفاصيل كهذه هي مفاتيح الخداع، كما يدرك ذلك المعلنون ومسؤولو التسويق بالجملة. فإذا استخدمت «الذهب» على سبيل المثال في عنوان أي شيء تحاول بيعه، فاطبعه بالذهب. وبما أن العين هي المسيطرة، فإن الناس سوف يستجيبون للون، أكثر مما يستجيبون للكلمة.

يحتوي الشيء البصري على قوة عاطفية عظيمة. فقد كان الإمبراطور الروماني قسطنطين يعبد الشمس كإله طيلة معظم سنوات حياته. فنظر إلى الشمس ذات يوم، ورأى صليباً يرتسم فوقها. فأثبت له منظر الصليب فوق الشمس أن الدين الجديد آخذ في الصعود. ولذلك فسرعان ما اعتنق المسيحية ولم يقتصر الأمر عليه، بل لقد نَصَّرَ الإمبراطورية الرومانية كلها بعد ذلك. وما كان لكل الوعظ والتبشير في الدنيا مثل هذه القوة والتأثير. اعثر على الصور والرموز التي تُحْدِثُ الاتصالَ بهذه الطريقة المباشرة واربط نفسك بهذه الصور والرموز، وسوف تحصل على سلطة لا حدود لها.

والأكثر تأثيراً من كل شيء هو مزيج جديد ـ خليط من الصور والرموز التي لم تُشَاهَدْ معاً من قبل، ولكنها من خلال تداعياتها تبين بوضوحٍ فكرتك الجديدة، أو رسالتك، أو ديانتك. ذلك أن خلق صور ورموز جديدة من القديمة بهذه الطريقة له تأثير شاعري. فتداعياتها في

أذهان المشاهدين تنشط في كل اتجاه بلا قيود، فتعطيهم إحساساً بالمشاركة.

وكثيراً ما تظهر الصور البصرية بشكل متتابع. والنظام الذي تظهر به يخلق رمزاً. فالصورة التي تظهر أولاً ترمز للسلطة على سبيل المثال. والصورة التي في الوسط يبدو أن لها أهمية مركزية.

قرب نهاية الحرب العالمية الثانية، نزلت أوامر من الجنرال آيزنهاور بأن تتقدم القوات الأميركية في الطريق إلى باريس بعد تحريرها من النازيين. غير أن القائد الفرنسي شارل ديغول أدرك أن هذا التتابع سوف يوحي ضمناً بأن الأميركيين يتحكَّمون في مصير فرنسا. وعن طريق الكثير من المناورة ضمن ديغول أنه سيظهر مع الفرقة الفرنسية المدرعة الثانية على رأس القوَّة المحرِّرة. ونجحت استراتيجيته: وبعد نجاح هذا العمل المثير والجسور، شرع الحلفاء يعاملونه باعتباره القائد الجديد لفرنسا المستقلة. وكان ديغول يعلم أن القائد يتعيَّن عليه أن يضع نفسه، حرفياً، على رأس قواته. فكان هذا الربط البصري حساس الأهمية للاستجابة العاطفية التي كان بحاجة إلى استدراجها.

والأشياء تتغيَّر في لعبة الرموز. فربما لم يعد ممكناً اتخاذ موقف «الملك الشمس»، أو لفّ معطف دايانا حول جسمك. ومع ذلك فإنك تستطيع أن تربط نفسك بمثل هذه الرموز على نحو غير مباشر. ويمكنك بالطبع أن تصنع أسطورتك الخاصة من شخصيات من الماضي الأحدث.. من أناس ماتوا وانتهوا، ولكن لا تزال هناك تداعيات قوية ترتبط بهم في نظر عامة الناس. والقصد من هذه الفكرة هو أن تعطي نفسك هالة ومكانة ما كان منظرك الطبيعي العادي المبتذل ليخلقهما لك، ببساطة. فَدَيان بواتييه بنفسها لم تكن تملك مثل تلك القوى المشعّة؛ إذ كانت إنسانةً وعاديةً مثلنا جميعاً. ولكن الرمز رفعها فوق باقي البشر، وجعلها تبدو شبيهة بالآلهة.

كما أن استخدام الرموز له تأثير شبيه برجال الحاشية، إذ أنهم كثيراً ما يكون ألطف من الكلمات الوحشية. وكان المعالج النفساني الدكتور ملتن هـ . إيريكسون، يحاول أن يجد رموزاً وصوراً تصل إلى المريض بطرق لا تقدر عليها الكلمات. فعندما كان يعالج مريضاً مصاباً باضطراب شديد، لم يكن يسأله بصورة مباشرة، بل يتحدث عن شيء لا علاقة له بالموضوع، كقيادة سيارة عبر صحراء آريزونا، حيث كان يتدرَّب في خمسينات القرن العشرين. وفي وصف ذلك كان يأتي في آخر الأمر إلى رمز مناسب لما كان يشكّ أنه سبب مشكلة المريض. فإذا كان المريض منعزلاً مثلاً، فإن الدكتور إيريكسون كان يتحدَّث عن شجرة زانٍ أبيض وحيدة، وكيف أن عزلتها تركتها عرضة لضربات الرياح. وعندئذٍ يربط المريض نفسه عاطفياً مع الشجرة كرمز، فينفتح بصورة أكثر تلقائية لأسئلة الطبيب الهادفة إلى سبر أغواره.

استخدم سلطة الرموز كطريقة لتجميع قواتك أو فريقك، وإحيائها وتوحيدها. فأثناء تمرّد ضد التاج الفرنسي سنة 1648، قام الموالون للملك بالحطّ من قدر المتمردين بمقارنتهم بالمقاليع (frondes بالفرنسية) التي يستخدمها الأولاد، لإخافة الأولاد الكبار. فقرَّر الكردينال دي ريتز، أن يحوِّل تلك العبارة الازدرائية إلى رمز للمتمرِّدين: فصار التمرّد يعرف باسم «المقلاع» والمتمرّدون باسم «المقلاعيين». فبدأوا يزنِّرون قبعاتهم بنطاقات ترمز إلى «المقاليع»، وصارت الكلمةُ صرخة تجمعهم. وبدونها كان التمرّد سيتلاشى. اعثر دائماً على رمز يمثِّل قضيتك ـ وكلما زادت تداعياته وارتباطاته العاطفية، كان ذلك أفضل.

إن أفضل طريقة لاستخدام الصور والرموز هي تنظيمها بحيث يتشكَّل منها مشهد هائل كبير يُشْعِرُ الناس بالهيبة ويلهيهم عن الحقائق الكريهة. وهذا سهل للتحقيق. فالناس يحبون ما هو كبير، وأخَّاذ، وأكبر من الحياة. فخاطب عواطفهم، وسوف يتقاطرون إلى مشهدك زرافاتٍ ووحداناً. فالشيء البصري هو أسهل الطرق إلى القلوب.

صورة: الصليب
والشمس. الصلب وإشعاع
كلّي، وقد انطبع أحدهما فوق
الآخر. حقيقة جديدة تأخذ في
التشكل . قوة جديدة آخذة في
الصعود. الرمز . لا ضرورة
للشرح.

الشاهد: يعجب الناس دائماً بالمظهر السطحي للأشياء. ينبغي على [الأمير]، في أوقات مناسبة من السنة... أن يُبقي الناس مشغولين وملتهين بالاحتفالات والمشاهد الاستعراضية.

(نيقولو ماكيافيللي، 1469. 1527)

الانقلاب

ليست هناك سلطةٌ تصبح متاحةً بتجاهل الصور والرموز، فليس هناك أي انقلاب محتمل لهذا القانون.

القانون

38

فكِّر كما تحب ـ
ولكن تصرَّف كالآخرين

الحكم

إذا حوَّلت معاكستك للعصر إلى استعراض، مزدهياً بأفكارك وأساليبك غير التقليدية أو المألوفة فسيعتقد الناس أنك لا تريد سوى إثارة الانتباه، وأنك تحتقرهم، وسيجدون طريقة لمعاقبتك على جعلك إياهم يشعرون بالنقص. فمن الأسلم بكثير أن تختلط بالناس وتحتضن اللمسة العادية المألوفة. وتقاسم أصالتك مع الأصدقاء المتسامحين فقط، ومع الذين سيقدِّرون كونك فذاً فريداً بالتأكيد.

انتهاك القانون

حوالى سنة 478 ق.م، أرسلت دولة إسبارطة حملة إلى فارس يقودها النبيل الإسبارطي بوسانياس. وكانت المدن ـ الدول في اليونان قد صدَّت قبل ذلك بزمن يسير غزواً قوياً من فارس. أما الآن (478 ق.م) فقد كانت لدى بوسانياس، ومعه سفن حليفة من أثينا، أوامر لمعاقبة الغزاة واستعادة الجزر والمدن الساحلية التي كان الفرس قد احتلوها. وكان الأثينيون والإسبارطيون جميعاً يكنّون لبوسانياس احتراماً عظيماً. ـ فقد أثبت وجوده كمحارب لا يعرف الخوف، مع نزوع إلى التحرّك الدرامي المفاجىء.

وبسرعة مذهلة، استولى بوسانياس وقواته على جزيرة قبرص، ثم تحرَّكوا إلى البر الرئيسي لآسيا الصغرى عبر مضيق الدردنيل واحتلّوا بيزنطة (المعروفة باسم إسطنبول في العصر الحديث). وعندما أصبح بوسانياس سيداً لجزء من الإمبراطورية الفارسية، أخذ يُظْهِرُ علاماتِ على سلوك يتخطى توهجه الحماسي المعتاد. فشرع يظهر على الملأِ، وقد دهن شعره بمراهم عطرية، وارتدى أثواباً فارسية طويلة فضفاضة، ويصحبه حرس شخصي من المصريين. وراح يقيم ولائم باذخة، يجلس فيها على الطريقة الفارسية، ويطالب بإمتاعه ومؤانسته. وتوقف عن رؤية أصدقائه القدامى، وشرع يتصل بالملك الفارسي إكسيركسيس. وفي كل الأشياء بدأ يصطنع أسلوب وطريقة دكتاتور فارسي.

فقر مع القلة
وتحدث مع الكثرة

من السهل أن يتعرض المرء للخطر بمحاولة السباحة ضدّ التيّار. ولا يستطيع أن يحاول ذلك سوى مَنْ له مواهب سقراط. فالمخالفة تعتبر مهينة لأنها إدانة لآراء الآخرين. فينمو عدد الساخطين، إما بسبب قضية صارت موضعاً للاستهجان أو بسبب شخصٍ امتدحها: فالحقيقة إنما هي للقلة. والخطأ معتاد كما أنه فظّ. ولا يتم التعرُّف على الرجل الحكيم مما يقوله في السوق، لأنه هناك لا يتكلم بصوته، ولكن بصوت الحمق الشائع بين الناس أجمعين، مهما كانت أعمق أفكاره تخالف ذلك. فالرجل الحكيم يتجنب تعريض نفسه للمناقضة بنفس الجد والمثابرة اللذين يتجنب بهما مناقضةَ الآخرين. إن علانية الاستهجان تُحْجَبُ عن الذي يَستَفِزّ الاستهجانَ بإرادته. فالفكر حرّ. فلا يمكن أن يكون فيه، ولا ينبغي

أن يكون فيه، إرغام.
فتراجع إلى ملجأ صمتك،
وإذا سمعت نفسك بكسره
أحياناً، فافعل ذلك تحت
حماية الأقلية من المتحفظين
الكثيرين.
بلثازار غراسيان،
1601 ـ 1658

كان واضحاً أن السلطة والنجاح قد أدارا رأس بوسانياس، فظن جيشه أول الأمر ـ من الأثينيين والإسبارطيين على السواء ـ أن هذه نزوة عابرة. فقد كان دائماً يبالغ في إشاراته. ولكن عندما راح يتبجح بإظهار ازدرائه لطريقة الحياة الإغريقية البسيطة، ويهين الجندي الإغريقي العادي، بدأوا يشعرون بأنه تجاوز الحدود في شططه. ورغم عدم وجود أدلة مادية، فقد انتشرت شائعات بأنه نقل ولاءه إلى الطرف الآخر، وبأنه يحلم أن يصير إكسيركسيس يونانياً. ولقمع احتمال وقوع تمرد، أعفى الإسبارطيون بوسانياس من منصبه القيادي واستدعوه للعودة إلى الوطن.

غير أن بوسانياس استمر يلبس على غرار الأسلوب الفارسي، حتى في إسبارطة. وبعد بضعة أشهر استأجر بصورةٍ مستقلةٍ سفينةً ثلاثية المجاذيف وعاد إلى الدردنيل، مخبراً مواطنيه أنه ذاهب ليستمر في القتال ضد الفرس. ولكنه في الحقيقة كان يملك خططاً أخرى ـ أن يجعل نفسه حاكماً لليونان كلها، بمساعدة من إكسيركسيس نفسه. فأعلنه الإسبارطيون عدواً للشعب، وأرسلوا سفينةً للقبض عليه. فاستسلم بوسانياس وهو متأكد أن باستطاعته أن يبرىء نفسه من تهمة الخيانة. ولم يظهر في المحاكمة أنه، خلال عمله كقائد، قد أهان زملاءه الإغريق مرة بعد مرة، وأنه كان يقيم النصب التذكارية باسمه الخاص بدلاً من أسماء المدن التي كانت قواتها تقاتل إلى جانبه، كما جرت العادة. ومع ذلك فقد أثبت بوسانياس أنه كان على حق. فرغم الأدلة على اتصالاته العديدة بالعدو، فقد رفض الإسبارطيون أن يسجنوا رجلاً من مولد نبيل، فأطلقوا سراحه.

وعندئذ راح بوسانياس يظن نفسه بعيداً عن متناول الجميع، فاستأجر رسولاً ليأخذ رسالة إلى إكسيركسيس. ولكن الرسول بدلاً من ذلك أخذ الرسالة إلى السلطات الإسبارطية. فأراد الإسبارطيون أن يكتشفوا المزيد، فجعلوا الرسول يرتب موعداً للقاء بوسانياس في معبد يستطيعون أن يختبئوا ويتنصتوا من وراء حاجز. فَصَدَمَهم ما قاله

بوسانياس ـ إذ لم يسبق لهم قط أن سمعوا واحداً منهم يتحدَّث بمثل هـ الاحتقار والصفاقة عن طراز حياتهم. فاتخذوا ترتيبات للقبض عليه عى الفور.

وفي طريقه إلى البيت من المعبد، وصله خبرٌ بما حدث، فركض إلى معبد آخر ليختبىء، ولكن السلطات لحقت به إلى هناك، وأحص المكان بحرَّاس، ورفض بوسانياس أن يستسلم. فلم ترد السلطات تـ تخرجه بالقوّة من المعبد المقدَّس. وأبقته محبوساً في داخله حتى مـ جوعاً في آخر الأمر.

يعيش جيداً مَنْ يخفي نفسه جيداً.
أوفيد
حوالي 43 ق .م - 18م

التفسير

ربما يبدو من النظرة الأولى أن بوسانياس قد وَقَعَ، ببساطة، في غرام حضارة أخرى. وهذه ظاهرة قديمة قدم الزمن. ذلك أنه لم يكـ مرتاحاً قطّ لزهد الاسبارطيين. فوجد نفسه أسيراً لحب الفرس للفخفخة واللذة الحسيّة. فكان يرتدي الأثواب الفارسية ويتضمَّخ بالعطر الفارسي بإحساس مَنْ يتخلَّص من نظام البساطة الإغريقي.

فهكذا تبدو الأمور عندما يتبنَّى الناسُ حضارةً لم ينشأوا في ظلّها غير أنه غالباً ما يكون هناك شيء آخر مؤثر. فعندما يزدهي الناس بعرض افتتانهم بحضارة مختلفة فإنهم يعبِّرون عن ازدرائهم واحتقارهم لحضارتهم نفسها. وهم يستخدمون المظهر الخارجيّ للشيء الغريب كي يفصلوا أنفسهم عن الناس العاديّين الذين يتبعون العادات والقوانين المحلية دون أي تساؤل. وكذلك ليعبِّروا عن إحساسهم بالتفوق. ولو كان الأمر غير ذلك لتصرَّفوا بكرامة أكثر، ولأظهروا احتراماً لمن لا يشاركونهم رغباتهم. والواقع أن حاجتهم لإظهار اختلافهم بمثل هذه الطرق البارزة اللافتة للنظر كثيراً ما يجعلهم غير محبوبين عند الناس الذين يَتَحَدَّوْنَ معتقداتهم، بطرق ربما تكون خفية وغير مباشرة، ولكنها جارحة مع ذلك.

[ينبغي] للرجال العقلاء أن يكونوا خزانة ذات قعرين بحيث لا يرى الآخرون فيها كل ما تحتويه عندما يفتحونها لينظروا إلى ما بداخلها.
السير والتر رالي،
1554 - 1618

وكما كتب تُوسِيدِيدِسْ عن بوسانياس: «إنه باحتقاره للقوانين وتقليده للأساليب الأجنبية، قد عرّض نفسه للارتياب على نطاق واسع في كونه غير راغب في مراعاة المقاييس العادية». فللحضارات معايير وقواعد سلوك تعكس قروناً من المعتقدات والمُثُل المشتركة. فلا تتوقع أن تسخر من مثل هذه الأشياء ثم تفلت من العقبات. بل إنك ستعاقَبُ بطريقةٍ مّا، حتى ولو كان ذلك عن طريق العزل فحسب ـ وهذا موقعٌ خالٍ من السلطة في الحقيقة.

إن كثيرين منّا يشعرون ـ مثل بوسانياس ـ بالنداء المغري للشيء الغريب والأجنبيّ. فقيِّدْ هذه الرغبة وقلِّم أظفارها. إذْ إنّ التبجح بعرض سرورك بأساليب التفكير والتصرف سوف يكشف دافعاً مختلفاً ـ هو رغبتك في إظهار تفوقك على زملائك.

مراعاة القانون

في أواخر القرن السادس عشر، ثار في إيطاليا رد فعل عنيف ضد الإصلاح البروتستانتي. وكانت معاكسة الإصلاح، كما سميت، تحتوي على نسختها الخاصة من محاكم التفتيش، لاستئصال كل الانحرافات عن مذهب الكنيسة الكاثوليكية. وكان من بين ضحاياها العالِم غاليليو. ولكن المفكِّر الأهمّ الذي عانى من اضطهاد أكبر حتى مما عاناه غاليليو كان هو الراهب الدومينيكاني والفيلسوف توماسو كامبانيلاّ.

كان كامبانيلاّ من أتباع المذهب المادّيّ للفيلسوف الروماني آبيقوروس، فلم يكن يؤمن بالمعجزات أو بالجنة والنار. بل كتب: «إن الكنيسة قد روّجت لمثل هذه الخرافات كي تتحكم بالناس وتبقيهم خائفين». ومثل هذه الأفكار كانت تقترب من حافة الإلحاد. وقد عبّر كامبانيلاّ عن أفكاره هذه بدون حذر. وفي سنة 1593، ألقت به محاكم التفتيش في السجن لقاء معتقداته الهرطقية. وبعد ذلك بستة أعوام،

عندما تغيّرت المياه

حدث ذات مرة في قديم الزمان أن وجه الخضر، معلم موسى، تحذيراً إلى البشر، فقال لهم إنه في تاريخ معين ستختفي كل مياه العالم، إلاّ المياه المخزّنة على نحو خاص. وعندئذ سيتم تجديدها بماء مختلف يصيب الرجال بالجنون.

فلم ينصت إلى مغزى هذه النصيحة سوى رجل واحد. فجمع مياهاً وذهب إلى مكان آمن فاختزنها فيه. وانتظر تغير طبيعة الماء

وفي التاريخ المحدد توقفت الجداول عن الجريان، وغارت الآبار وعندما رأى ذلك الرجل الذي سمع النصيحة، ذهب إلى مخبئه وشرب من مائه المحفوظ. وعندما رأى من مأمنه أن مساقط المياه عادت إلى التدفق، نزل مع باقي الناس. فلاحظ أنهم يفكرون ويتكلمون بطريقة تختلف كلّيّاً عمّا سبق؛ ومع ذلك فإنهم لم يتذكروا ما حدث، ولم يتذكّروا التحذير.

وعندما حاول أن يتحدث معهم، أدرك أنهم يظنون أنه مجنون، فأظهروا له عداءً أو رحمة، لا فهماً.

وفي بادىء الأمر لم يشرب من مائهم، ولكنه كان يعود إلى مخبئه، فيشرب من إمداداته المختزنة. غير أنه اتخذ في آخر الأمر قراراً بأن يشرب الماء الجديد لأنه لم يطق الوحدة الموحشة في العيش، والتصرف، والتفكير بطريقة تختلف عن كل شخص آخر. فشرب الماء الجديد، وصار مثل باقي

الناس. وعندئذٍ نسي كل شيء عن مخزونه من الماء الخاص. وبدأ الناس ينظرون إليه على أنه شخص مجنون عاد إليه عقله بمعجزة.
قصص الدراويش
إدريس شاه،
1967

وكنوع من إطلاق السراح الجزئيّ، فرضت عليه الإقامة الجبرية في دير بمدينة نابولي.

وكانت إيطاليا الجنوبية خاضعةً لإسبانيا في ذلك الحين. وفي نابولي اشترك كامبانيلاّ في خطة لقتال هؤلاء الغزاة وطردهم. وكان يأمل في تأسيس جمهورية مستقلة مبنية على أساس أفكاره الخاصة عن المدينة الطوباويّة الفاضلة. فتم حبسه ثانيةً على أيدي محاكم التفتيش الإيطالية، التي كانت تعمل مع نظيرتها الإسبانية. وفي هذه المرة عذبوه أيضاً كي يكتشفوا الطبيعة الحقيقية لمعتقداته الفاسقة. فاستخدموا ضده الأداة اللعينة la veglia وهو تعذيب علقوه فيه من ذراعيه بينما هو في وضع القرفصاء على ارتفاع بضعة إنجات من مقعد انغرست فيه مسامير ضخمة. وكان من المستحيل الصمود في هذا الوضع. إذ مع مرور الوقت ينتهي الأمر بالضحية إلى الجلوس على المسامير، التي من شأنها أن تمزق لحمه لدى أخفّ اتصال بها.

غير أن كامبانيلاّ كان أثناء تلك السنوات قد تعلم شيئاً عن السلطة ففي مواجهة الإعدام بسبب الهرطقة، غيّر استراتيجيته. فلن ينكر معتقداته، غير أنه كان يعلم أن عليه أن يموّه مظهرها الخارجي.

ولكي ينقذ كامبانيلاّ حياته، تصنّع الجنون، وترك زبانية محاكم التفتيش يتصورون أن معتقداته تنبع من خلل في عقله لا يمكن السيطرة عليه. فاستمر التعذيب فترة أخرى للتأكد من كون جنونه غير مصطنع ولكن في سنة 1603، خُفِّف الحكم عليه إلى السجن مدى الحياة. فقضى السنوات الأربع الأولى مقيداً إلى جدار في زنزانة تحت الأرض. ورغم هذه الأحوال استمر في الكتابة ـ ولو أنه لم يعد من الحماقة بحيث يعبر عن أفكاره بصورة مباشرة.

وقد روّج كتابه **الملكية الإسبانية** لفكرة كون إسبانيا ذات رسالة إلهية لتوسيع سلطاتها حول العالم، وقدم للملك الإسباني نصيحة عملية ماكيافيلليةَ الطراز لتحقيق ذلك. ورغم اهتمامه الخاص بماكيافيللي، فإن

الكتاب يقدم بصورة عامة أفكاراً معاكسة لأفكاره بصورة كاملة. والواقع أن ذلك الكتاب كان خدعة، ومحاولة لإظهار عودته إلى الاعتقاد الديني الصحيح، في أجْرَأ طريقة ممكنة. ونجحت الحيلة. ففي سنة 1626، بعد نشره بست سنوات، أطلق البابا في آخر الأمر سراح كامبانيلاّ من السجن.

وبعد وقت قصير من كسب حريته، كتب كتاباً بعنوان **هزيمة الإلحاد** يهاجم فيه المفكرين الأحرار، من الماكيافيلليين، والكالفنيين، والهراطقة من كلِّ نوع. وقد كتب الكتاب على شكل مناقشات يُعبِّر فيها الهراطقة عن معتقداتهم، ويرد عليهم بحجج عن تفوق الكاثوليكية. وبدا بوضوح أن كامبانيلاّ قد أصلح أحواله كما يبين الكتاب ذلك. أم هل فعل حقاً؟

فالحجج التي وضعها في أفواه الهراطقة لم يسبق له قَطّ أن عبّر عنها بمثل هذا الحماس والنضارة. وتظاهر بأنه يعرض رأيهم ليسقطه فحسب، وبذلك لخّص القضية المضادة للكاثوليكية بحماس عاطفي لافت للنظر ومثير. وعندما كان يناقش قضية الطرف الآخر، المفروض أنه جانبه هو، كان يلجأ إلى صيغ عتيقة مبتذلة، وأسس منطقية معقدة. وهكذا بدت مجادلات الهراطقة المختصرة البليغة جريئة ومخلصة. أما المجادلات المتطاولة دفاعاً عن الكاثوليكية فقد بدت مملّةً وغير مقنعة.

وقد وجد الكاثوليك الكتابَ مثيراً للقلق وغامضاً عندما قرؤوه، ولكنهم لم يكونوا قادرين على الادعاء بأنه هرطقي، أو بأن كامبانيلاّ ينبغي أن يعود إلى السجن. فقد كان دفاعه عن الكاثوليكية، بعد كل شيء، يستخدم الحجج التي يستخدمونها بأنفسهم. ومع ذلك ففي السنوات اللاحقة صار كتاب **هزيمة الإلحاد** إنجيلاً للملحدين، والماكيافيلليين، والفاسقين، الذين راحوا يستعملون الحجج التي وضعها

كامبانيلاّ في أفواههم للدفاع عن أفكارهم الخطرة. فلقد أظهر كامبانيلاّ أنه قد تعلّم درسه عندما جمع بين إظهار الالتزام بالجادّة من جهة، والتعبير عن معتقداته الحقيقية من جهة أخرى، بطريقة يفهمها المتعاطفون معه.

إياك أن تقاتل ضد آراء أي رجل. فحتى لو عدت إلى عصر ميتوشالح [السحيق القِدَم]، فإنك لن تستطيع جعله يقف ضد الأشياء السخيفة والباطلة التي يؤمن بها.

ومن المستحسن أيضاً تجنب إصلاح أخطاء الناس أثناء المحادثة، مهما كانت نواياك حسنة. ذلك أن إهانة الناس سهلة ولكن إصلاحهم صعب، إن لم يكن مستحيلاً.

فإذا شعرتَ بالانزعاج من الملاحظات السخيفة التي يبديها شخصان صادف أن سمعت حديثهما، فعليك أن تتصور أنك تستمع إلى حوار أحمقين في مسرحية هزلية.

إن الرجل الذي يأتي إلى العالم ولديه فكرة أنه سيعلّمه في قضايا في غاية الأهمية، قد يضطر إلى شكر حسن طالعه إذا نجا من هذه الدنيا بجلده وهو متماسك.

آرثر شوبنهاور
1860 - 1788

التفسير

في مواجهة اضطهاد رهيب، ابتكر كامبانيلاّ ثلاث حركات استراتيجية أنقذت جلده، وحررته من السجن، وأتاحت له أن يستمر في التعبير عن معتقداته. فتظاهر أولاً بالجنون، وهو ما يعادل في العصور الوسطى أن يتنصّل المرء من المسؤولية عن أعماله، مثل إلقائه اللوم على والديه اليوم. وتلا ذلك بكتابةِ كتابٍ يعبّر عن عكس معتقداته بالضبط، وأخيراً، وبحركة هي الأكثر ألمعية، قام بتمويه أفكاره بينما كان يلمح إليها في الوقت نفسه. وتلك خدعة قديمة ولكنها قوية: تتظاهر بأنك لا تتفق مع الأفكار الخطرة، ولكن في سياق مخالفتك لتلك الأفكار تعطيها تعبيراً وعرضاً جلياً. وتبدو متفقاً مع الأفكار التقليدية السائدة، ولكن العارفين سيفهمون التهكم الذي تنطوي عليه هذه الطريقة من قول الشيء وقصد ضده. فتصبح أنت محمياً.

ومن المحتوم في المجتمع أن بعض القيم والعادات تفقد اتصالها بدوافعها الأصلية وتصبح ثقيلة الوطأة. وسيكون هناك دائماً أناس يتمردون على هذا القهر، ويكنّون أفكاراً سابقة لزمنهم بكثير. غير أنه ـ كما أرغم كامبانيلاّ على إدراك ذلك ـ لا فائدة من إقامة استعراض علني لأفكارك الخطرة، إن كانت لا تجلب لك سوى الألم والاضطهاد. فالاستشهاد من أجلها لا يخدم غرضاً ـ فمن الأفضل الاستمرار في الحياة في عالم ظالم مستبد، بل والانتعاش فيه. وفي هذه الأثناء، اعثر على طريقة للتعبير عن أفكارك بصورة خفية ذكية للذين يَفْهَمُونَك. إذ أن عرضك دُرَرَكَ على الخنازير لن يأتيك إلاّ بالمتاعب.

مضى وقت طويل دون أن أقول ما أومن به، كما أنني لا أومن أبداً بما أقول؛ وحتى ولو حدث أحياناً أنني أقول الحقيقة، فإنني أخفيها وسط أكاذيب كثيرة بحيث يصبح العثور عليها صعباً.

(نيقولو ماكيافيللي، في رسالة إلى فرانسيسكو غويشيارديني، في ١٦ أيار [مايو سنة ١٥٢١].

مفاتيح السلطة

نحن جميعاً نقول الأكاذيب، ونخفي مشاعرنا الحقيقية، لأن التعبير الكامل والحرّ هو استحالة اجتماعية. إننا نتعلم إخفاء أفكارنا منذ سن مبكرة. فنخبر الحسّاسين وسريعي الغضب وغير الآمنين ما نعلم أنهم يودّون سماعه، ونحرص بشدة على عدم جرحهم أو إهانتهم. وهذا طبيعي بالنسبة لمعظمنا ـ فهناك أفكار وقيمٌ يقبلها معظم الناس. ولا جدوى من الجدل فيها. فنحن نعتقد ما نريد إذن، ولكننا على الجانب الخارجي نرتدي قناعاً.

غير أن هناك أناساً يرون هذه القيود افتئاتاً على حريتهم لا يطاق وهم بحاجة إلى إثبات تفوق قيمهم ومعتقداتهم. غير أن حججهم في آخر الأمر لا تقنع سوى قليلين، وتضايق وتغيظ عدداً أكبر بكثير. والسبب الذي يجعل المجادلات لا تفيد هو أن معظم الناس يحافظون على أفكارهم وقيمهم بدون التفكير فيها. إذ أن هناك محتوىً عاطفياً قوياً في معتقداتهم. وهم في الحقيقة لا يريدون أن يعيدوا تشغيل عاداتهم في التفكير. وعندما تتحداهم، سواء بشكل مباشر من خلال مجادلاتك أم غير مباشر من خلال سلوكك، فإنهم يصبحون عدائيين.

ويتعلَّم الناس الحكماء والبارعون منذ وقت مبكر أنهم يستطيعون أن يعرضوا سلوكاً تقليدياً، ويعبِّروا عن أفكارٍ تقليدية دون الاضطرار إلى الإيمان بها. والسلطة التي يكسبها هؤلاء الناس من الاختلاط مع الآخرين هي تركهم وشأنهم، لتكون لديهم الأفكار التي يشاؤون، وليعبروا عنها لمن يشاؤون، بدون أن يعانوا من العزل والمقاطعة.

المواطن والمسافر

قال المواطن. «انظر فيما حولك. هذا أكبر سوق في العالم». فقال المسافر: «آه، بالتأكيد لا». فقال المواطن «حسناً ربما لا يكون الأكبر، ولكنه الأفضل بكثير». فقال المسافر: «من المؤكد أنك مخطىء في ذلك، ويمكنني أن أخبرك...» فدفنوا الغريب عند الأصيل.

خرافات

روبرت لويس ستيفنسون

1850 - 1894

وعندما يثبّتون أنفسهم بصورة راسخة في مركز السلطة، يستطيعون أن يحاولوا إقناع دائرة أكبر بصحة أفكارهم ـ وربما يعملون بطريقة غير مباشرة، مستخدمين استراتيجية كامبانيلاّ في السخرية والتلميح.

في أواخر القرن الرابع عشر، بدأ الإسبان اضطهاداً جماعياً كثيفاً لليهود. فقتلوا ألوفاً وطردوا من البلاد ألوفاً أخرى. وأرغم الذين ظلوا في إسبانيا على التنصُّر. ومع ذلك لاحظ الإسبان على مدى القرون الثلاثة التالية ظاهرةً أثارت قلقهم. فكثير من المتنصِّرين كانوا يعيشون حياتهم الخارجية ككاثوليك. ومع ذلك فقد استطاعوا بطريقةٍ مّا أن يحتفظوا بمعتقداتهم اليهودية، وظلوا يمارسون دينهم سراً. فكثير من هؤلاء المدعوين بالمارّانو (وهو اصطلاح انتقاصيّ مأخوذ من الكلمة التي تعني «الخنزير» باللغة الإسبانية) وصلوا إلى مستويات عليا من الوظائف الحكومية، وتزاوجوا مع طبقة النبلاء وأعطوا كل مظهر من مظاهر التقوى المسيحية، ثم يُكْتَشَفُ في آخر حياتهم أنهم كانوا يهوداً متدينين (وقد كلفت محاكم التفتيش الإسبانية تحديداً بإخراجهم من مكامنهم). وعبر السنين أتقنوا فن الخداع والرياء، فكانوا يعرضون الصلبان وصور المسيح على الصليب بكثرة وحرية ويقدمون هدايا سخية للكنائس، بل يبدون في بعض المناسبات ملاحظات لا سامية. وطيلة الوقت يحافظون على حريتهم ومعتقداتهم الداخلية.

لو كان لدى ماكيافيللي أمير يتلمذ على يديه، لكان أول شيء يوصيه به هو أن يؤلف كتاباً ضدّ الماكيافيللية.

فولتير
1694 ـ 1778

كان المارّانو يعلمون أن المظاهر هي الشيء الذي يهمّ في المجتمع. وهذا يظل صحيحاً اليوم. والاستراتيجية بسيطة، فكما فعل كامبانيلاّ في كتابه **هزيمة الإلحاد**، اجعل اختلاطك بالآخرين مشهداً استعراضياً، بل واذهب إلى الحد الذي يصل إليه أكثر المدافعين حماساً عن العقيدة السائدة. فإذا التزمتَ بالمظاهر التقليدية علناً على الملأ، فلن يظن إلاّ قليلون بأنك تفكّر بطريقة مختلفة في السرّ.

فلا تكن من الحمق بحيث تتصوَّر أن التقاليد القديمة قد انتهت ولم تعد موجودة في عصرنا هذا. وعلى سبيل المثال، فإن جوناس صولك،

كان يظن أن العِلْمَ قد تخطَّى السياسة والبروتوكول. وهكذا ففي بحثه عن لقاح ضد شلل الأطفال، كسر كل القواعد ـ فأعلن الاكتشاف على الملأ قبل عرضه على الأسرة العلمية، وأخذ فضل اكتشاف اللقاح دون الاعتراف بالعلماء الذين مهَّدوا الطريق، وبذلك جعل نفسه نجماً. فربما يكون عامة الناس قد أحبّوه، ولكن العلماء شرعوا يتجنَّبونه. ذلك أن عدم احترامه لتقاليد مجتمعه قد تركه معزولاً. فأمضى سنوات في محاولة رأب الصدع، ويناضل من أجل التمويل والتعاون.

لقد تعرَّض برتولت بريخت، لشكل حديث من محاكم التفتيش ـ لجنة مكافحة الأنشطة المعادية لأميركا التابعة للكونغرس. فاقترب منها بحكمة وبعد نظر كبير. فبعد أن كان قد عمل بطريقة متفرقة لصناعة الأفلام الأميركية أثناء الحرب العالمية الثانية، استدعي سنة 1947، للمثول أمام اللجنة للإجابة عن أسئلة عن تعاطفه المشتبه به مع الشيوعية. وكان الكتَّاب الآخرون الذين استدعتهم اللجنة قد قرَّروا أن يهاجموا أعضاءها وأن يتصرَّفوا بأكبر قدر ممكن من العدوانية كي يكسبوا العطف لأنفسهم. ومن جهة أخرى، فإن بريخت الذي كان يعمل باطراد للقضية الشيوعية فقد مارس لعبة معاكسة، فأجاب على أسئلة اللجنة بعموميات غامضة تتحدَّى أي تفسير. ويمكنك تسمية هذه الخطة استراتيجية كامبانياً. بل إن بريخت قد ارتدى بذلة ـ وهذا حدث نادر بالنسبة إليه. وحرص على تدخين سيجار أثناء الإجراءات، عارفاً أن أحد الأعضاء الأساسيين في اللجنة كان شديد الولع بالسيجار. وفي آخر الأمر سحر أعضاء اللجنة الذين تركوه حراً طليقاً تماماً.

وانتقل بريخت إلى ألمانيا الشرقية، حيث واجه نوعاً مختلفاً من محاكم التفتيش. فقد كان الشيوعيون هنا في السلطة. وقد انتقدوا مسرحياته باعتبارها متفسخة ومتشائمة. فلم يتجادل معهم، بل أجرى تغييرات صغيرة في نصوص الأداء المسرحي، كي يُسْكِتَ منتقديه. وفي تلك الأثناء استطاع بريخت أن يحافظ على النصوص المنشورة كما كان

قد كتبها أصلاً. فأعطاه التزامه بما هو سائد في الحالتين حرية العمل بلا عراقيل، وبدون الاضطرار إلى تغيير تفكيره. وفي آخر الأمر، شقّ طريقه بسلام في فترات زمنية خطرة، في بلدان مختلفة من خلال استخدام رقصات على أنغام التقاليد السائدة، وأثبت أنه أقوى من قوى الكبت.

إن أصحاب السلطة لا يتجنبون المضايقات التي يمارسها أمثال بوسانياس وَصُولْكْ فحسب، بل إنهم يتعلَّمون أن يلعبوا دور الثعلب الماكر وأن يتظاهروا بأن لهم لمسة عامة الناس. فقد كانت هذه هي خدعة فناني الاحتيال والسياسيين عبر القرون. فقد تغلَّب قادةٌ مثل يوليوس قيصر وفرانكلين ديلانو روزفلت على موقفهم الأرستقراطي الطبيعي كي يتقرَّبوا بمعرفة حميمة من الرجل العادي. وقد عبَّروا عن هذه الإلفة بإشارات صغيرة كثيراً ما كانت رمزية، ليظهروا للناس أن قادتهم يشاطرونهم القيم الشعبية، رغم مكانتهم المختلفة.

والامتداد المنطقي لهذه الممارسة هي القدرة التي لا تقدَّر بثمن على أن يكون المرء كلَّ شيء لكل الناس. فعندما تدخل أوساط المجتمع، اترك خلفك أفكارك وقيمك الخاصة، والبس القناع الأنسب للمجموعة التي تجد نفسك بينها. فقد مارس بسمارك هذه اللعبة بنجاح على مدى سنوات ـ وكان أناس فهموا على نحو غامض ما الذي كان يرمي إليه، ولكن ليس بوضوح يجعل الأمر يهم. فالناس يبتلعون الطعم لأن مما يرضي غرورهم أن يعتقدوا أنك تشاطرهم أفكارهم. لن يعتبروك منافقاً إذا كنتَ حريصاً، إذْ كيف يستطيعون أن يتهموك بالنفاق إذا لم تدعهم يعرفون بالضبط ما الذي تمثله؟ ولن يروك كشخص تعوزه القِيَم. فبالطبع لديك قِيَم ـ وهي القيم التي تتقاسمها معهم، عندما تكون في صحبتهم.

الشاهد: لا تعطوا القدس للكلاب. ولا تطرحوا دُرَرَكم قُدَّام الخنازير، لئلاً تدوسها بأرجلها وتلتفت فتمزقكم.

(السيد المسيح، إنجيل متى، ٧: ٦)

صورة: الخروف الأسود. يتجنَّب القطيعُ الخروفَ الأسود، وهو غير متأكدٍ إن كان الخروف يعود للقطيع أم لا. وهكذا يشرد الخروف الأسود خلف القطيع، أو يتجول بعيداً عنه فتحاصره الذئاب وتلتهمه على الفور. فابقَ مع القطيع ـ فهناك السلامة مع العدد الوفير. وابقِ خلافاتك في أفكارك، وليس على جزّة صوفك.

الانقلاب

إن الوقت الوحيد الذي يستحق البروز بالانفصال عن الآخرين هو عندما تكون بالفعل بارزاً، عندما تكون قد حققت لنفسك مركزَ سلطة لا يتزعزع، وتستطيع أن تعرض اختلافك عن الآخرين كعلامة للمسافة الفاصلة بينك وبينهم. كان ليندون جونسون وهو رئيس للولايات المتحدة يعقد اجتماعات في بعض الأحيان وهو جالس على المرحاض. وبما أنه لم يكن هناك أي شخص آخر يقدر، أو يريد أن يدعي مثل هذا «الامتياز»، فإن جونسون كان يوضح للناس أنه لم يكن مضطراً لمراعاة البروتوكول ومجاملات الآخرين في قواعد السلوك. وقد مارس الإمبراطور الروماني كاليغولا اللعبةَ نفسَها. كان يرتدي ثوباً نسوياً طويلاً فضفاضاً، أو ثوب حمّام ليستقبل الزوار الهامّين، بل ذهب إلى درجة أنه أراد انتخاب حصانه قنصلاً، ولكن ذلك أدى إلى رد فعل عكسيّ، لأن الناس كرهوا كاليغولا، وأدت إشاراته في آخر الأمر إلى إسقاطه. والحقيقة أنه حتى أولئك الذين يصلون إلى قمة السلطة من الأفضل لهم أن يصطنعوا اللمسة الشعبية العادية على الأقل، لأنهم في فترة معينة قد يحتاجون إلى الدعم الشعبي.

وأخيراً، فإن هناك دائماً مكاناً للشخص المزعج، الذي ينجح في

تحدي العرف المعتاد، ويسخر ممّا صار متحجراً لا حياة فيه في حضارةٍ مّا. فأوسكار وايلد، على سبيل المثال، حقق سلطةً اجتماعيةً كبيرةً على هذا الأساس: فقد أوضح للناس بأنه يزدري الأساليب المعتادة في عمل الأشياء، وعندما كان يقرأ نصوصه علانية لم يكن مستمعوه يتوقعون منه أن يهينهم فحسب، بل كانوا يرحبون بإهاناته. غير أننا نلاحظ أن دوره الغريب قد دمّره في آخر الأمر. وحتى لو أفضى به الأمر إلى نهاية أفضل فتذكر أنه كان يملك عبقرية غير عاديّة: فلولا موهبته في التسلية والإمتاع لكانت أشواكه قد آذت الناس وضايقتهم فحسب.

القانون

39

عَكّر المياه لتصطاد السمك

الحكم

إن الغضب والانفعال العاطفي يعطيان نتائج عكسية من الناحية الاستراتيجية. فعليك أن تبقى هادئاً وموضوعياً على الدوام. ولكن إذا استطعت إغضاب أعدائك بينما تبقى أنت هادئاً، فإنك تكسب ميزة حاسمة. فخلخل توازن أعدائك. إعثر على شقٍّ في غرورهم تستطيع من خلاله أن تهزّهم بقعقعةٍ بينما تمسك أنت بالخيطان.

انتهاك القانون

في شهر كانون الثاني/ يناير سنة 1809، هرع نابليون بونابرت عائداً إلى باريس من حروبه الإسبانية وهو مهتاج وقلق. فجواسيسه وعيونه الموثوقون أكدوا له شائعة عن تآمر وزير خارجيته تاليران ضده مع فوشيه، وزير شرطته. وفور وصول الإمبراطور المصدوم إلى العاصمة باريس، استدعى وزراءه إلى القصر. ثم لحق بهم إلى الاجتماع بعد وصولهم تماماً، وشرع يذرع المكان جيئة وذهوباً، ثم بدأ يتحدث بغضب، وعلى نحو مفكك وغامض، عن المتآمرين الذين يعملوه ضده. وعن المضاربين الذين يتسببون في هبوط سوق الأوراق المالية. والمشرِّعين الذين يعرقلون سياساته ـ ووزرائه العاملين على تقويض حكمه.

وبينما كان نابليون يتحدث، اتكأ تاليران على رفّ الموقد، وهو يبدو غير مبالٍ تماماً. فواجهه نابليون مباشرة وأعلن: «بالنسبة لهؤلاء الوزراء، بدأت الخيانة عندما سمحوا لأنفسهم بالتشكك». وعند كلمة «خيانة»، توقع الحاكم من وزيره أن يخاف. ولكن تاليران لم يزد على أن ابتسم وهو هادىء وقد بدا عليه السأم.

وأدت رؤية مرؤوسٍ في مزاج صافٍ رائق في مواجهة اتهامات قد تودي به إلى الشنق، إلى دفع نابليون من فوق حافة الجرف، فقال إن هناك وزراء يريدونه ميتاً. ثم اتخذ خطوة أقرب إلى تاليران ـ الذي ظل

إيتاكورا شيجيميون يطحن شايه بنفسه

كان كيوطو شوشيدال إيتاكورا سُو وُو ـ نو ـ كامي شيجيميون مغرماً جداً بالشا ـ نو ـ يو (حفلة الشاي)، وكان من عادته أن يطحن شايه بنفسه أثناء جلوسه في المحكمة كقاضٍ، وكان سبب ذلك هو التالي: سأل ذات مرة صديقاً كان رفيقاً له في حفلة الشاي (وهو تاجر شاي يُدْعَى إيكي)، أن يخبره عن رأي عامة الناس فيه، فقال إيكي: «حسناً، يقولون إنك تتزوج من الذين لا يطرون شهاداتهم بوضوح، وإنك توبخهم، ولذلك يخشى الناس أن يقيموا الدعاوى أمامك، وإذا فعلوا، فإن الحقيقة لا تظهر للعيان». فردّ شيجيميون: «آه، إنني سعيدٌ لأنك أخبرتني بذلك. وعندما أفكر في هذا الأمر، أرى أنني قد تعودت على التكلم مع الناس بحدةٍ على هذا النحو. ولا شك أن الناس البسطاء والذين لا يملكون طلاقة في الكلام يضطربون فيعجزون عن عرض قضاياهم تحت أفضل

يحدّق بنابليون دون قلق أو انزعاج. وأخيراً انفجر نابليون صارخاً في وجه تاليران: «إنك جبان، ورجل بلا إيمان، فليس شيء عندك بمقدس. بل أنت مستعد لبيع أبيك نفسه. لقد أغدقت عليك الثراء. ومع ذلك فليس هناك شيء لا تريد أن تفعله لتؤذيني». ونظر الوزراء الآخرون إلى بعضهم بعضاً غير مصدقين ـ فلم يحدث من قبل أبداً أن رأوا هذا الجنرال الذي لا يعرف الخوف، والذي غزا معظم أوروبا، قلقاً مشوشاً إلى هذا الحدّ.

وتابع نابليون وهو يدقّ الأرض بقدمه: «إنك تستحق الكسر كالزجاج. وإني لقادر على تكسيرك. ولكنني أحتقرك أكثر من أن أهتم بذلك. لماذا لم آمر بشنقك على أبواب قصر التويلري؟ ولكن لا يزال هناك متسع من الوقت لذلك». وتابع يصرخ وقد كاد نَفَسُهُ ينقطع، واحمرّ وجهه، وبرزت عيناه: «وأنت ـ على فكرة. لستَ سوى غائط في جورب نسائي حريري... وماذا عن زوجتك؟ إنك لم تخبرني أبداً أن سان كارلوس هو عشيق زوجتك؟». فقال تاليران بهدوء كامل ودون أي ارتباك: «الحق يا سيدي أنه لم يخطر ببالي أن هذه المعلومات لها أي تأثير على مجد جلالتكم، أو على مجدي أنا». وبعد عدد آخر من الإهانات، انصرف نابليون خارجاً. فذرع تاليران الغرفة ببطء، وهو يتحرك بعرجته المتميزة. وبينما كان أحد المرافقين يساعده في ارتداء معطفه، استدار إلى زملائه الوزراء (الذين كانوا جميعاً يخشون أنهم لن يروه ثانيةً قطّ)، وقال: «يا للأسى، أيها السادة، أن يكون رجل بهذه العظمة سيّئَ الأدب إلى هذا الحد».

ورغم غضب نابليون، فإنه لم يعتقل وزير خارجيته، بل اكتفى بإعفائه من واجباته ونفيه من بلاطه، معتقداً بأن الإذلال سيكون عقوبة كافية لهذا الرجل. فلم يدرك أن الخبر سينتشر بسرعة عن خطبته الطويلة العنيفة، وكيف أن الإمبراطور فَقَدَ السيطرة على نفسه بشكل كامل، وكيف أن تاليران قد أذله من حيث الجوهر بمحافظته على رباطة جأشه

الأضواء. وساهم بأن لا يحدث ذلك في المستقبل». وهكذا، فبعد أن وضع طاحونة الشاي أمامه في المحكمة، وأمامها أرخى الستائر المغطاة بالورق، وخلفهما جلس شيجيمون، وهو يطحن الشاي، وبذلك يبقي ذهنه هادئاً أثناء سماعه للدعاوى. وبذلك كان يستطيع أن يعرف بسهولة ما إذا كان مزاجه قد تعكر أم لا، عن طريق النظر إلى الشاي، الذي لا يتزل مطحوناً بشكل متجانس على نحو مناسب إذا احتاج. وهكذا أقيمت العدالة بدون تحيز، وصار الناس يغادرون محكمته وهم راضون.

شا ـ نو ـ يو:
حفلة الشاي اليابانية
م. ل. سادلر،
1962

ووقاره. وهكذا طويت صفحة: فلأول مرة رأى الناسُ الإمبراطورَ العظيمَ يفقد برودة أعصابه تحت النار. وانتشر شعور بأنه في طريقه إلى الانحدار. وكما قال تاليران: «هذه بداية النهاية».

التفسير

كانت تلك بداية النهاية حقاً. كانت واترلو ما تزال على بعد ستة أعوام في المستقبل. ولكن نابليون كان آخذاً في الهبوط ببطء نحو الاندحار، الذي تبلور سنة 1812، مع غزوه الكارثيّ لروسيا. ولقد كان تاليران أول من رأى علامات انحطاطه، وخصوصاً في حربه غير العقلانية مع إسبانيا. وفي وقت ما من سنة 1808، قرر الوزير أنه من أجل سلام أوروبا يجب أن يذهب نابليون. وهكذا تآمر مع فوشيه.

ومن المستحيل أن المؤامرة لم تكن قطّ سوى خدعة ـ أو تدمير لدفع نابليون من فوق الحافة. لأن من الصعب الاعتقاد بأن اثنين من أكثر الرجال عمليةً في التاريخ يقطعان نصف الطريق فقط في تآمرهما. فربما كانا يقومان بتعكير المياه فقط، ويحاولان حث نابليون على اتخاذ خطوة خاطئة. وبالفعل فقد كان ما حصلا عليه هو نوبة غضب كشفت فقدانه للسيطرة عياناً أمام الجميع. والواقع أن انفجار نابليون في ذلك المساء سرعان ما اشتهر، وترك أثراً سلبياً عميقاً على صورته العامة.

وهذه هي المشكلة في الردّ الغاضب، فهو للوهلة الأولى قد يزرع الخوف والرعب، ولكن في نفوس البعض فقط، ومع مرور الأيام وانقشاع العاصفة، تبرز ردود أخرى ـ كالشعور بالحرج والقلق حول قابلية الصارخ للخروج عن طوره، والغضب مما قيل. فأنت عند فقدانك السيطرة على طبعك تكيل للناس اتهاماتٍ ظالمةً ومبالغاً فيها. فإن تكررت مثل هذه الانفجارات الصاخبة، فسيبدأ الناس بعدّ أيامك حتى تذهب.

ينبغي عدم الشعور بحقد تجاه أي شخص إن كان ذلك ممكناً... ذلك أن التكلم بغضبٍ مع شخصٍ ما، أو إظهار كراهيتك له من خلال ما تقول أو بالطريقة التي تنظر بها إليه، إنما هو إجراء غير ضروري. وخطِر، وأحمق، وسخيف، وفظّ. فالغضب أو الكراهية ينبغي عدم إظهارهما أبداً بطريقة أخرى غير ما تقوم به من

لقد كان لنابليون بالتأكيد الحق في الشعور بالغضب والقلق في

عمل. إذ إن المشاعر ستكون أكثر فاعلية في العمل، ما دمتَ تتجنب عرضها بأي طريقة أُخرى. فليست الحيوانات ذوات الدم البارد هي وحدها ذوات اللدغة السامة.

آرثر شوبنهاور
1788 ـ 1860

مواجهة مؤامرة ضده ـ مؤامرة بين أهم اثنين من وزرائه. ولكنه بالردّ بهذه الدرجة من الغضب، ومن العلانية لم يزد على أن أظهر شعوره بالإحباط. وإظهار شعورك بالإحباط، معناه إظهار فقدان سلطتك على تشكيل الأحداث؛ إنه عمل طفل لا حول له يلجأ إلى نوبة هستيرية ليحصل على ما يريد. والأقوياء ذوو السلطة لا يكشفون عن هذا النوع من الضعف على الإطلاق.

كان هناك عدد من الأشياء التي يستطيع نابليون أن يفعلها في هذا الوضع. كان يمكن أن يفكر بأن شخصين بارزين عقلانيين، لا بدّ أنه كان لهما سبب وجيه للانقلاب عليه. فكان يمكنه الاستماع إليهما والتعلم منهما. وكان بإمكانه أن يحاول كسبهما إلى جانبه ثانيةً. بل كان يمكنه التخلص منهما، جاعلاً سجنهما أو موتهما، عرضاً لسلطته ينذر بشر مستطير لمن يتطاول عليها، وبلا صخب، ولا نوبات طفولية، ولا آثار لاحقة محرجة.. بل قطع للعلاقة هادىء وحاسم.

تذكّر: إن نوبات الغضب لا تخيف، ولا تلهم الولاء، بل إنها تخلق شكوكاً وقلقاً حول سلطتك. فهذه الانفجارات العاصفة تفضح ضعفك، وكثيراً ما تؤذن بأفولك.

مراعاة القانون

عند حلول أواخر عشرينات القرن العشرين، كان هيلا سيلاسي قد حقق هدفه تقريباً بالسيطرة الكلية على إثيوبيا، وهي بلد شعر بأنه يحتاج إلى قيادة قوية وموحدة. وبصفته وصياً على الإمبراطورة زوديتو (ابنة زوج الملكة الراحلة) ووريثاً للعرش، كان قد أمضى عدة أعوام في إضعاف سلطة قادة الحرب المختلفين في إثيوبيا. ولم تعد هناك سوى عقبة واحدة تقف في طريقه: الإمبراطورة وزوجها راس غوغاس. وكان سيلاسي يعلم أن الزوجين الملكيين يكرهانه ويريدان التخلص منه. وهكذا ليقطع الطريق على تآمرهما جعل غوغاس حاكماً لمقاطعة

القرد والزنبور
بينما كان أحد القرود يمضغ حبة كمثرى ناضجة، ضايقه زنبور بحركاته الوقحة والملحة، لأنه كان يريد مشاركته فيها سواء بإرادته أم برغم أنفه. وبعد أن هدد القردَ بغضبه إذا استمر في

بيغميدير الشمالية، مما أرغمه على ترك العاصمة، التي كانت تعيش فيها الإمبراطورة.

وعلى مدى عدة سنوات لعب غوغاس دور الإداري المخْلِص. ولكن سيلاسي لم يكن يثق به. وكان يعلم أن غوغاس والإمبراطورة يخططان للانتقام. ومع مرور الوقت وعدم قيام غوغاس بأية حركة، كانت فرص المؤامرة تزداد. وكان سيلاسي يعرف ماذا عليه أن يفعل: أن يخرج غوغاس من وكره، أن يقلقه ويستثير هواجسه، فيدفعه إلى العمل قبل أن يكون مستعداً له.

وعلى امتداد سنوات عديدة كانت قبيلة شمالية، هي قبيلة عصيبو غالا متمردة ضد العرش عملياً، تنهب وتسطو على القرى المحلية، وترفض دفع الضرائب، ولم يكن سيلاسي قد فعل شيئاً لإيقافها، وتركها تشتدّ وتقوى. وأخيراً، في سنة 1929، أمر راس غوغاس أن يقودَ جيشاً ضد رجال القبيلة العصاة هؤلاء. فوافق غوغاس، ولكن نفسه من الداخل ظلت تجيش ـ فلم يكن لديه حقد على قبيلة عصيبو غالا. وقد آذت كبرياءَه مطالبتُهُ بقتالهم. ولم يكن يستطيع أن يعصي الأمر، ولكن بينما راح يعمل لتجميع جيش، بدأ ينشر شائعة قبيحة. هي أن سيلاسي متواطىء مع البابا، وأنه يريد تحويل البلد كله إلى مذهب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وجعله مستعمرة لإيطاليا. وتضخم جيش غوغاس. واتفقت بعض القبائل التي ينتسب إليها جنوده اتفاقاً سرياً على مقاتلة سيلاسي. وفي شهر آذار/مارس سنة 1930، بدأت قوة هائلة من خمسة وثلاثين ألف رجل بالزحف، ليس على قبيلة عصيبو غالا، بل إلى الجنوب، نحو العاصمة آديس آبابا. وأدى تنامي هذه القوة إلى زيادة ثقة غوغاس، فأخذ يقود علانيةً حرباً مقدسة للإطاحة بسيلاسي وإعادة البلد إلى أيدي المسيحيين الحقيقيين.

ولكنه لم ير الفخ الذي كان قد نُصِبَ له. فقبل أن يأمره سيلاسي بقتال قبيلة عصيبو غالا، كان قد أمّن دعم الكنيسة الإثيوبية. وقبل أن تبدأ

الإحجام عن الاستسلام لطلبه، وقفَ على الفاكهة، ولكن القرد أسقطه عنها في الحال. فلجأ الزنبور المنزعج إلى الشتم والقدح، وبعد أن استخدم أكثر الكلمات إهانة، والمخلوق الآخر يستمع إليه بهدوء، انفعل انفعالاً عاطفياً عنيفاً حتى فقد كل اعتبار للعقوبة فطار إلى وجه القرد، ولسعه بغضبٍ بلغ من شدته أنه عجز عن استخراج سلاحه، فأُرغم على انتزاع نفسه تاركاً إبرته في الجرح، فحزّ على نفسه ميتةً بطيئة مضحوكاً بآلام أكبر بكثيرٍ من التي أوقعها بالقرد

خرافات
جوناثان بيزنتس
1783 ـ 1847

الثورة، كان سيلاسي قد رشا عديدين من حلفاء غوغاس الرئيسيين كي يتغيبوا عن المعركة. وحالما بدأ الجيش المتمرد بالزحف جنوباً، حلقت فوقه طائرات ألقت منشورات تعلن أن أعلى المسؤولين في الكنيسة قد اعترفوا بسيلاسي باعتباره القائد المسيحي الحقيقي لإثيوبيا، وأنهم قد حرموا غوغاس، لأنه يثير حرباً أهلية، وأدت هذه المنشورات إلى ثلم حدة العواطف المثارة وراء هذه الحملة الصليبية المقدسة ثلماً شديداً. وبينما لاحت المعركة في الأفق لم يظهر الدعم الذي كان حلفاء غوغاس قد وعدوه به، فبدأ الجنود بالهرب أو الارتداد.

وعندما جاءت المعركة، انهار الجيش المتمرد بسرعة. ورفض راس غوغاس أن يستسلم، فقُتِلَ أثناء القتال. أما الإمبراطورة فقد أذهلها موت زوجها وأصابها باضطراب شديدٍ، فماتت بعد بضعة أيام. وفي 30 نيسان/ أبريل أصدر سيلاسي بلاغاً رسمياً يعلن فيه لقبه الجديد: إمبراطور إثيوبيا.

التفسير

كان هيلا سيلاسي دائماً يرى عدة تحركات مسبقاً. فكان يعرف أنه إذا ترك راس غوغاس يقرر زمان الثورة ومكانها، فإن الخطر سيكون أعظم بكثير مما لو أرغمه على أن يتصرف وفق شروط سيلاسي. وهكذا فقد حثه على التمرد بإهانة كبرياء رجولته، إذْ طلب منه أن يقاتل أناساً لا شجار له معهم، ونيابةً عن رجل يكرهه. وقد فكر سيلاسي سلفاً بكل شيء فضمن أن تمرد غوغاس لن يؤدي إلى شيء، وأنه سوف يستخدم هذا التمرد ليقضي على آخر عدوين له.

وهذا هو جوهر القانون. فعندما تكون المياه ساكنة، فإن خصومك لديهم الوقت والمجال كي يخططوا الأعمال يكونون هم المبادرين إليها والمتحكمين بها. وهكذا فإن عليك أن تعكر المياه، وترغم الأسماك على الطفوّ على السطح. اجعل خصومك يتصرفون قبل أن يكونوا جاهزين، واسرق منهم زمام المبادرة. وأفضل طريقة لعمل ذلك هي

استغلال العواطف الخارجة عن السيطرة، كالكبرياء، والغرور، والحب، والكراهية. فما أن تتعكر المياه حتى تعجز الأسماك الصغيرة عن مقاومة الصعود نحو الطعم. وكلما زاد غضب خصومك قلّت قدرتهم على التحكم، وأخيراً يقعون في الدوّامة التي أثرتها، ويغرقون.

على العاهل أن لا يجرّد جيشاً بسبب الغضب. فالقائد يجب أن لا يبدأ حرباً انطلاقاً من الغيظ

(صُون تْزُو، القرن الرابع ق .م).

مفاتيح السلطة

ينتهي الأمر بالغاضبين إلى أن يظهروا سخفاء، لأن ردود أفعالهم تبدو غير متناسبة مع ما سبَّبها. فقد أخذوا الأشياء على محمل الجدّ بشكل مفرط، وبالغوا في الآلام أو الإهانات التي لحقت بهم. وهم حساسون للاستخفاف بحيث يصبح من المضحك مدى أخذهم الأشياء على محمل شخصي. والأكثر مدعاة للهزل اعتقادهم بأن انفجاراتهم ترمز إلى علامة على العجز. فربما خاف الناس مؤقتاً من نوابات غضبك، ولكنهم في آخر الأمر يفقدون احترامهم لك. كما أنهم يدركون أنهم يستطيعون بسهولة أن يضعفوا مكانة شخص لا قدرة له على ضبط نفسه.

غير أن الجواب ليس في كبت استجاباتنا الغاضبة أو العاطفية. لأن الكبت يُنْضِبُ طاقتنا ويدفعنا إلى سلوك غريب. وعلينا بدلاً من ذلك أن نغير زاوية نظرنا: علينا أن ندرك أنه لا يوجد شيء شخصي في المملكة الاجتماعية، وفي لعبة السلطة.

إن كل شخص تمسك بتلابيبه سلسلة من الأحداث تسبق اللحظة الراهنة بزمن طويل. وكثيراً ما ينبع غضبنا من مشاكل في طفولتنا ومن مشاكل والدينا الذين تنبع مشاكلهم بدورها من طفولتهم، وهكذا وهكذا. كما أن لغضبنا جذوراً في التفاعلات الكثيرة مع الآخرين، في خيبات

كاهن الحفرة الأكبر

كان كْيتِيّو موظفاً من المرتبة الثانية، وكان له أخ يدعى الكاهن الأكبر ريوغاكو، وكان رجلاً سيّء الطباع للغاية. وكانت بجوار ديره شجرة قُرّاص، مما جعل الناس يعطونه اسمَ تعريف كلقبٍ، وهو: كاهن القُرّاص الأكبر»، فقال الكاهن الأكبر إن هذا الاسم مثير للسخط، فقطع الشجرة. وبما أنه أبقى أصل الجذع، فقد راح الناس يشيرون إليه بلقب «كاهن الجذع الأكبر». فثارت ثائرته أكثر من ذي قبل، وأمر باستئصال باقي الجذع ورميه بعيداً. غير أن ذلك ترك حفرة كبيرة. فراح الناس يسمونه «كاهن الحفرة الأكبر».

مقالات في التبطُّل
كينكو، اليابان
القرن الرابع عشر

الأمل المتراكمة وأوجاع القلب التي عانيناها. وكثيراً ما يظهر شخص واحد كأنه هو محرض غضبنا، ولكن الأمر أعقد بكثير، ويتجاوز ما فعله ذلك الشخص بنا. فإذا انفجر عليك شخصٌ بغضبه (وَبَدا أن غضبه لا يتناسب مع ما فعلته به)، فعليك أن تذكّر نفسك بأن غضبه ليس موجهاً إليك حصراً ـ فلا تكن مغروراً إلى هذا الحدّ. إذ أن سبب غضبه أكبر بكثير، ويعود إلى زمن أبعد، وينطوي على عشرات من الجراح السابقة، وهو في الواقع غير جدير بأن تهتم بفهمه. وبدلاً من أن تراه كحقد شخصيّ، انظر إلى الانفجارات العاطفية كحركات مموهة لاكتساب السلطة، كمحاولة للسيطرة عليك أو معاقبتك ترتدي ثياب المشاعر المجروحة والغضب.

وهذا التحول في زاوية النظر سيتيح لك أن تمارس لعبة السلطة بوضوح أكثر وطاقة أكبر. وبدلاً من الإفراط في رد الفعل والوقوع في شبكة عواطف الناس، فإنك ستحوّل فقدانهم السيطرة لصالحك. فتحتفظ أنت برأسك (اتزانك) بينما يفقدون رؤوسهم.

أثناء إحدى المعارك الهامة في حرب الممالك الثلاث في القرن الثالث الميلادي، اكتشف مستشارو القائد تسآو تسآو وثائق تبين أن بعض جنرالاته العاملين تحت إمرته قد تآمروا مع العدو. وحثوه على القبض عليهم وإعدامهم. وفي تلك اللحظة الحرجة من المعركة كان الانزعاج والمطالبة بالعدالة سينعكسان ضده. وكان أي عمل غاضب سيلفت الانتباه إلى عدم ولاء الجنرالات، وكان هذا بدوره سيؤذي الروح المعنوية للقوات. فاحتفظ تسآو تسآو برزانته واتخذ القرار الصحيح.

قارن ذلك مع رد فعل نابليون على تاليران. فبدلاً من أخذ المؤامرة على محمل شخصي، كان على الإمبراطور أن يمارس اللعبة على طريقة تسآو تسآو، فيزن عواقب أي إجراء يتخذه وزناً دقيقاً. ولقد كان رد الفعل الأقوى، في آخر الأمر، هو تجاهل تاليران، أو إعادة الوزير تدريجياً إلى جانبه، ثم معاقبته بعد ذلك.

إن الغضب لا يفعل سوى تخفيض خياراتنا. وذوو السلطة الأقوياء لا يستطيعون الانتعاش بدون خيارات. فعندما تدرب نفسك على عدم أخذ القضايا على محمل شخصي، وعلى التحكم بردود فعلك العاطفية، فإنك تكون قد وضعت نفسك في مركز سلطة هائلة: وعندئذ تستطيع أن تستغل ردود الفعل العاطفية للناس الآخرين. حرّض الأشخاص غير الآمنين على العمل بالطعن في رجولتهم، والإدلاء باحتمال نصر سهلٍ أمام وجوههم. وافعل كما فعل هوديني عندما تحداه كليبّيني، فنان الإفلات الأقل نجاحاً منه. اكشف لخصمك ضعفاً ظاهراً (فهوديني ترك كليبيني يسرق التركيبة السرية لكلمة الشيفرة لزوج من القيود) كي تستدرج خصمك إلى القيام بعملٍ مّا. وعندئذ تستطيع التغلب عليه بسهولة. ومع المتغطرسين أيضاً تستطيع أن تظهر أضعف مما أنت في الحقيقة، فتستفزّهم للقيام بعمل متهوّر.

فقد قام صُنْ بِينْ، قائد جيوش شْيِي، والتابع المخلص لصُونْ تْزُو، بقيادة قواته ضد جيوش وَيْ التي كانت تفوقه عددياً بنسبة اثنين إلى واحد. فاقترح صُنْ بينْ: «دعونا نوقد مائة ألف نار عند دخول جيشنا إلى وَيْ، وخمسين ألف نار في اليوم التالي، وثلاثين ألفاً فقط في اليوم الثالث». وفي اليوم الثالث هتف جنرال جيش وَيْ: «كنت أعلم أن أفراد جيش شْيِي جبناء، وها هم أولاء بعد ثلاثة أيام وقد هرب أكثر من نصفهم!». وهكذا، ترك الجنرال وراءه قوات مشاته الثقيلة البطيئة الحركة، وقرر استغلال تلك اللحظة ليتحرك بسرعة ضد معسكر شْيِيْ بقوة خفيفة التسليح. فتراجعت قوات صُنْ بِينْ، مستدرجةً جيش وَيْ إلى مَمَرٍّ ضَيِّق، حيث أوقعوهم في كمين ودمّروهم. ومع موت جنرال وَيْ وتمزق قواته شذر مذر، قام صُنْ بِينْ بدحر باقي جيشه بسهولة.

وأخيراً، ففي مواجهة عدوّ حامي الرأس يكون الرد الأفضل هو عدم الردّ. اتبع تكتيك تاليران: فلا شيء يثير الغيظ أكثر من رجل يحافظ على برودته بينما الآخرون يفقدون برودتهم. فإذا كان من المفيد

لمصلحتك أن تزعزع الناس، فتصنعْ موقف الأرستقراطي الذي يشعر بالسأم، غير ساخر ولا منتصر، ولكن ـ ببساطة ـ غير مبالٍ. فهذا سيشعل فتيلهم. وعندما يُحْرِجُون أنفُسَهم بعاصفة في مزاجهم، ستكون قد فزت بعدة انتصارات، أحدها أنك في مواجهة طفولتهم، احتفظت بكرامتك ووقارك ورصانتك.

صورة: بركة السمك ـ المياه رائقة
وهادئة. والأسماك تحت السطح بمسافة. حرّك
المياه وعكِّرها فتبرز الأسماك. زِدْ في تعكيرها وسوف تغضب،
صاعدة إلى السطح لتعضّ أي شيء يقترب منها، بما فيها
الصنارة المتصل بها طعم طازج.

الشاهد: إذا كان خصمك حامي الطبع، فحاول أن تزعجه. وإذا كان متغطرساً، فحاول أن تشجع أنانيته... إن الشخص البارع في جعل العدو يتحرك، يفعل ذلك بخلق وضعٍ يجعل العدو يتحرك بموجبه؛ فيغوي العدو بشيء من المؤكد أن يأخذه العدو. ويبقي العدو متحركاً عن طريق التلويح له بطعم، ومن ثم مهاجمته بقوات منتقاة.

(صُونْ تْزُو، القرن الرابع قبل الميلاد)

الانقلاب

عند اللعب بعواطف الناس، عليك أن تكون حريصاً. ادرس العدو سلفاً: فبعض الأسماك من الأفضل أن تبقى في قاع البركة.

كان قادة مدينة صور، عاصمة فينيقية يشعرون بأنهم قادرون على الصمود في وجه الإسكندر الأكبر الذي غزا الشرق، ولم يكن قد هاجم

مدينتهم، التي كانت محمية جيداً على واجهة الماء. فأرسلوا سفراء إلى الإسكندر، قائلين إنهم رغم اعترافهم به إمبراطوراً لن يسمحوا له أو لقواته بالدخول إلى صور. فأغضبه ذلك بالطبع. ففرض على المدينة حصاراً في الحال. وصمدت المدينة طيلة أربعة أشهر. وأخيراً قرر أن الصراع ليس جديراً بالتعب، وأنه سيتصالح مع الصوريين. ولكنهم شعروا بأنهم قد ضايقوا الإسكندر ونجوا بفعلتهم، وبأنهم قادرون على الصمود أمامه، فرفضوا التفاوض ـ بل لقد قتلوا رسله.

فأدى ذلك إلى دفع الإسكندر فوق الحافة. فلم يعد يهمه مدى تطاول الحصار، وضخامة الجيش الذي يحتاج إليه؛ فقد كانت لديه الموارد، فقرر أن يفعل كل ما يتطلبه الأمر، وشن هجومه بشدة بحيث استولى على المدينة في غضون أيام. فأحرقها حتى مسح بها الأرض وباع أهلها عبيداً.

تستطيع أن تضايق ذوي السلطة الأقوياء، وتقدم لهم طعماً، لتجعلهم يزجّون بقواتهم، أو يقسمونها، كما فعل صُنْ بِينْ. ولكن اختبر المياه أولاً. اعثر على الفجوة في قوتهم. فإن لم تكن هناك فجوة ـ وإن كانوا أقوياء إلى حد المستحيل ـ فليس لديك ما تكسبه، بل لديك كل ما تخسره من استفزازهم.

وأخيراً، فإن هناك أوقاتاً يمكن فيها لانفجار غاضب جيد التوقيت أن يكون مفيداً لك، ولكن غضبك ينبغي أن يكون مصنوعاً وتحت سيطرتك. وعندئذ تستطيع أن تقرر بالضبط كيف وعلى من سيقع. فلا تثر ردّ فعلٍ يعمل ضدك في المدى الطويل. واستخدم صواعقك الرعدية بصورة نادرة، لجعلها أكثر إخافة وامتلاءاً بالمعنى. وسواء أكانت انفجاراتك مرتبة بصورة متعمدة أم لا، فإنها إذا تواترت بصورة مفرطة، ستفقد قوتها.

القانون

40

احتقر
الغداء المجاني

الحكم

إن ما يعرض مجاناً فيه خطورة. فهو في العادة إما أن ينطوي على خديعة، أو على التزام خفيّ. فما له قيمة جدير بأن يدفع ثمنه. فبدفع الأثمان تظل متحرراً من العرفان، ومن الذنب، ومن الخديعة. وكثيراً ما يكون من الحكمة أن تدفع الثمن كاملاً ـ فليس هناك حسميات مع الامتياز. كُنْ سخياً بما لك وأَبْقِهِ متداولاً، لأن السخاء علامة السلطة ومغناطيس لها.

المال والسلطة

في مملكة السلطة، ينبغي الحكم على كل شيء بحسب كلفته. وما يُعْرَضُ مجاناً أو بسعر صفقات مخفض كثيراً ما يأتي ومعه فاتورة سعر نفسي ـ مشاعر معقدة من الالتزام، وتنازلات عن النوعية، وانعداء الأمن الذي تأتي به تلك التنازلات، وهكذا وهكذا. ويتعلم ذوو السلطة الأقوياء، منذ وقت مبكر حماية أثمن مواردهم؛ واستقلالهم؛ وإفساح المجال لمناوراتهم. وبدفع الثمن كاملاً يبقون أنفسهم متحررين من الاشتباكات الخطرة وأنواع القلق.

كما أن الانفتاح والمرونة في التعامل مع المال يعلّمان قيمةَ الكرم الاستراتيجي، وهو تنويع على الخدعة القديمة: «أعطِ عندما تكون على وشك الأخذ». فبإعطاء الهدية المناسبة، فإنك تضع التزاماً على كاهل المتلقي. إذ أن الكرم يليّن مواقف الناس، كي يتم خداعهم. وبالحصول على سمعة السخاء تكسب إعجاب الناس، بينما أنت تلهيهم عن ألعاب السلطة التي تمارسها. وبنشر ثروتك بطريقة استراتيجية فإنك تسحر رجال الحاشية الآخرين، فتخلق المسرّة وتكسب حلفاء قيّمين.

وانظر إلى أرباب السلطة أمثال القياصرة، والملكة آليصابات (آليزابيث الأولى)، ومايكل آنجيلو، وآل مديتشي: فليس بينهم بخيل. وحتى فنانو الاحتيال ينفقون المال بحرية كي يبتزوا ويخدعوا. فخيوط الكيس المشدودة ليست جذابة ـ فعندما كان كازانوفا ينهمك في عملية

الكنز الدفين

كثير من ضعاف العقول في المدن يأملون أن يكتشفوا ممتلكات تحت سطح الأرض، وأن يحققوا منها شيئاً من الربح. وفي المغرب كثير من «الطلبة» البربر غير القادرين على تدبير أمور معيشتهم بالطرق والوسائل الطبيعية. فيذهبون إلى الأغنياء بأوراق تمزقت حواشيها وهي تحتوي إمّا على كتابة غير عربية أو ما يزعمون أنه ترجمة لوثيقةٍ كتبها صاحبُ كنزٍ دفين، وفيها دليل على مكان إخفائه. وبهذه الطريقة يحاولون الحصول على ما يقيهم أودهم من خلال [إقناع الأثرياء] بإرسالهم للتنقيب عن الكنز واستخراجه. وفي بعض الأحيان يعرض أحد صيادي الكنوز هؤلاء معلوماتٍ غريبةً أو خدعةً من السحر لافتةً للنظر يخدع بها الناس بجعلهم يصدّقون مزاعمه الأخرى، رغم أنه في الحقيقة لا يعرف شيئاً عن السحر وإجراءاته... إن الأشياء التي قيلت عن

إغواء كان يعطي بسخاء كامل، ليس من نفسه فحسب، بل من محفظة نقوده أيضاً. ويفهم ذوو السلطة الأقوياء أن المال مشحون نفسياً، وأنه أيضاً وسيلة تهذيب وتواصل اجتماعي. وهم يجعلون الجانب الإنساني من المال سلاحاً في ترسانتهم.

وفي مقابل كل شخص قادر على اللعب بالمال، هناك أُلوف من المنغلقين في رفض مدمّر للذات لاستخدام المال بطرق خلاقة واستراتيجية. وهذه الأنواع تقدم القطب المعاكس لذوي السلطة، وعليك أن تتعلم كيف تتعرف عليهم ـ إما لتجنب طبيعتهم السامة، أو لتحويل عدم مرونتهم لصالحك.

الأسماك الجشعة: تنزع الأسماكُ الجشعةُ الجانبَ الإنسانيَّ من المال. فهي باردة وبلا رحمة، ولا ترى سوى كشف الميزانية الذي لا حياة فيه، ولا ترى الآخرين إلاَّ كبيادق أو كعقبات في طريق ملاحقتها للثروة. وهي تدوس عواطف البشر وتنفّر الحلفاء الهامّين. ولا أحد يحب الاشتغال مع الأسماك الجشعة، ومع مرور السنين، ينتهي بها الأمر إلى العزلة التي كثيراً ما تثبت أنها نهايتها.

والأسماك الجشعة هي الغذاء الذي يقتات عليه فنانو النصب والاحتيال. فهي تُغْرَى بطُعْمِ المال السهل، فتبتلع صنارة الخديعة. فهي سهلة الانخداع، فهي تُمضي وقتاً طويلاً في التعامل مع الأرقام (وليس مع الناس) إلى درجةٍ تعميها عن علم النفس، بما فيه أنفسها. فإمّا أن تتجنبَ هذه الأسماكَ الجشعةَ قبل أن تستغلك، أو أن تستغلَّ أنت جشَعَها لصالح كَسْبِك.

شياطين الصفقات: إن ذوي السلطة الأقوياء يحكمون على كل شيء بحسب كلفته، ليس من المال فقط بل كذلك من الوقت، والكرامة، وهدوء البال. وهذا بالضبط ما لا يستطيع أن يفعله شياطين الصفقات. فهم يهدرون وقتاً ثميناً في البحث عن صفقات، ويقلقون قلقاً لا ينتهي حول ما كان من الممكن أن يحصلوا عليه في مكان آخر بسعر

[اكتشاف الكنوز] ليس لها أساس علمي، وهي لا تقوم على معلومات [حقيقية]. فيجب الإدراك بأنه رغم العثور على كنوز فإن هذا لا يحدث إلاَّ نادراً، وبالصدفة، وليس بالبحث المنهجي المنظَّم... وأولئك المخدوعون أو المتأثرون بهذه الأشياء عليهم أن يعوذوا بالله من عجزهم عن تدبير معيشتهم ومن كسلهم في هذا الصدد. وينبغي عليهم ألاَّ يشغلوا أنفسهم بالخزعبلات والقصص غير الصحيحة.

المقدمة
ابن خلدون،
1332 ـ 1406

أرخص قليلاً. وفوق ذلك فإن المادة التي يشترونها فعلاً في صفقتهم كثيراً ما تكون رديئة النوع؛ وقد تحتاج إلى إصلاحات باهظة الكلفة، أو يضطر المرء إلى تبديلها بسرعة تبلغ ضعف سرعة الحاجة إلى تبديل المادة الجيدة النوع. إن كلفة هذه الملاحقات ـ ليس بالمال دائماً (رغم أن أسعار الصفقات كثيراً ما تكون خداعة)، بل بالوقت وهدوء البال ـ تثبط الناس عن الاضطلاع بها. أما بالنسبة لشياطين الصفقات فإن الصفقة غاية في حد ذاتها.

وربما تبدو هذه النماذج مؤذية لنفسها فقط؛ ولكن مواقفها معدية. وما لم تقاومها فإنها ستعديك بالشعور بعدم الأمان، وبأنه كان ينبغي عليك البحث بجهد أكبر عن سعر أرخص. فلا تجادلهم ولا تحاول تغييرهم. فقط إجمع في ذهنك الكلفة في الوقت، وهدوء البال الداخلي، إن لم يكن في النفقة المالية الخفية للمطاردة غير العقلانية للصفقات.

السّاديّ: يُمارس الساديّون الماليّون ألعاباً للسلطة شريرة ضارية، مستخدمين المال كطريقة لتوكيد سلطتهم. وعلى سبيل المثال، فقد يجعلونك تنتظر المال الذي لك في ذمتهم فيعدونك بأن الصك في طريقه إليك بالبريد. أو أنهم إذا استأجروك لتعمل لهم، يتدخلون في كل جانب من جوانب المهمة، فيساومون ويسببون لك قرحات. ويعتقد الساديون أن دفعهم ثمن شيءٍ مّا يعطيهم الحق في تعذيب البائع وإساءة معاملته. فليس لديهم شعور بعنصر رجل الحاشية في المال. فإن شاء لك سوء الطالع أن تتورط في التعامل مع هذا النوع، فإن قبول خسارة مالية قد يكون أفضل في الأجل البعيد من الوقوع في تشابكات ألعاب السلطة المدمرة التي يمارسونها.

المعطي بلا تمييز: للسخاء وظيفة محددة في السلطة. فهو يجتذب الناس، ويليّن مواقفهم، ويجعل منهم حلفاء. ولكنه يجب أن يُسْتَخْدَمَ بطريقة استراتيجية، مع وجود غاية محددة في الذهن. ومن جهة أخرى،

البخيل

باع بخيلٌ كلَّ ممتلكاته كي يضمن بقاءها وحوّلها إلى كتلة كبيرة من الذهب، خبأها في حفرة في الأرض، وراح يزورها باستمرار للتفتيش عليها. فأثار هذا فضول واحدٍ من عماله، فارتاب بأن هناك كنزاً. وعندما أدار سيده ظهره، ذهب إلى تلك البقعة وسرق ما كان فيها. وعندما عاد البخيل ورأى المكان فارغاً، بكى ومزّق شعره. ولكن جاراً له رآه في هذه الحالة من الحزن الكبير وعلم سببه قال: «توقّف عن إقلاق نفسك، وخذ حجراً وضعه في المكان نفسه، وفكّر في أن هذه هي كتلتك الذهبية؛ فبما أنك لم تكن

فإن المعطين بلا تمييز هم كرام لأنهم يريدون أن يحبهم الجميع ويعجبوا بهم. وسخاؤهم بلا تمييز ولا هدف محدد بحيث أنه قد لا يحقق الأثر المنشود. فإذا كانوا يعطون للجميع، فلماذا يشعر المتلقي بأن له أي خصوصية؟ وقد يكون من المغري أن تجعل نفسك بارزاً كمعطٍ بلا تمييز، ولكنك في أي علاقة من هذا النوع كثيراً ما تجد نفسك مُثْقلاً بأعباء احتياجاتهم العاطفية التي لا تشبع.

تقصد أن تستخدمها، فإن أي واحدة من الكتلتين ستفعك كما تفعلك الأخرى».

إن قيمة المال ليست في حيازته، بل في استخدامه

خرافات إيسوب، القرن السادس ق. م

انتهاكات القانون

الانتهاك الأول

بعد أن قام فرانشيسكو بيزارو بغزو بيرو، في سنة 1532، بدأ الذهب من إمبراطورية الإنكا يصب في إسبانيا، وأخذ الإسبان من كل الطبقات يحلمون بالثراء الفوري الذي يمكن الحصول عليه في الدنيا الجديدة. وسرعان ما انتشرت قصة زعيم هندي في شرق بيرو كان يغطي جسده بطريقة طقوسية بتراب الذهب مرة في كل سنة ثم يغطس في بحيرة. وسرعان ما حوّلت الإشاعاتُ الشَّفَهِيَّةُ عبارةَ إلْ دورادو «الرجل الذهبي» إلى إمبراطورية تدعى إلْ دورادو، أغنى من الإنكا، حيث الشوارع معبدة بالذهب، والمباني مرصعة بالذهب. وهذا تحوير في القصة لم يبدُ عليه أنه غير مفهوم، لأن زعيماً قادراً على تحمل تضييع تراب الذهب في بحيرة، لا بدّ أنّه يحكم إمبراطورية ذهبية بالتأكيد. وسرعان ما انتشر الإسبان الباحثون عن إلْ دورادو في جميع أنحاء شمال أميركا اللاتينية. وفي شهر شباط/ فبراير سنة 1541، غادرت كيتو، في إكوادور، أكبر حملة حتى ذلك الحين في هذا المشروع، بقيادة غونزالو، شقيق بيزارو. فاتجه إلى الشرق ثلاثمائة وأربعون إسبانياً، بدروعهم اللامعة، وحريرهم الملون، مصطحبين أربعة آلاف هندي لحمل مؤنهم ومعمل ككشافة، وأربعة آلاف خنزير، وعشرات من حيوان اللاّما، وحوالى ألف كلب. ولكن الحملة سرعان ما تعرضت لأمطار كالسيول، جعلت اعتدتها تتعفن وطعامها يفسد. وفي تلك الأثناء، بينما راح

هناك قول شعبي شائع في اليابان مؤداه: «لا شيء أبهظ كلفة من شيء يُعطَى مجاناً».

الطريقة غير المنطوقة ميشيهيرو ماتسوموتو، 1988

غونزالو شقيق بيزارو، يستجوب الهنود الذين عثروا عليهم في الطريق، فإن أولئك الذين شكّ في أنهم يحجبون عنه المعلومات، أو الذين لم يكونوا حتى قد سمعوا بالمملكة الخرافية، كان يعذبهم ويطعمهم للكلاب. فانتشر الخبر بسرعة بين الهنود عن كون الإسبانِ قتلةً، فأدركوا أن الطريقة الوحيدة لتجنب غضب غونزالو هي تلفيق القصص له عن إلْ دورادو وإرساله إلى أبعد مكان ممكن. ولذا، فبينما راح غونزالو ورجاله يتابعون الأدلة الملفقة المعطاة لهم، كانوا يُسْتَدرجون أبعد فأبعد إلى أعماق الغابة.

فهبطت وارتخت روح المستكشفين المعنوية. وتمزقت أزياؤهم إلى أسمال؛ وصدئت دروعهم، فرموا بها بعيداً؛ وتقطعت أحذيتهم فاضطروا للسير حفاة. أما العبيد الذين اصطحبوهم في بداية الرحلة فإما أنهم ماتوا، أو هجروهم؛ ولم يأكلوا خنازيرهم فحسب، بل كذلك كلاب الصيد وحيوانات اللاّما، وراحوا يعيشون على الجذور والفواكه. وإذْ أدرك غونزالو أنهم غير قادرين على الاستمرار على هذا النحو، فقد قرر أن يغامر بالسفر عن طريق النهر. فبنى مركباً كبيراً من الخشب المتعفن. ولكن الرحلة عبر نهر نابو الغَدَّار أثبتت أنها ليست أسهل من سفر البرّ. فأقام غونزالو معسكره على ضفة النهر، وأرسل كشافةً يسبقونه على المركب ليعثروا له على مستوطنات هندية فيها طعام. وانتظر وانتظر الكشافةَ حتى يعودوا، ليكتشف أنهم قرروا أن يهجروا الحملة، ويستمروا مع مجرى النهر وحدهم.

واستمر المطر بلا انتهاء. ونسي رجال غونزالو كل شيء عن إلْ دورادو؛ وصار كلّ ما يريدونه هو العودة إلى كيتو فقط. وأخيراً، في شهر آب/ أغسطس سنة 1542، استطاع مائة رجل ونيّف أن يتدبروا طريقهم عائدين، من أصل حملة كانت تعد بالألوف. وقد بَدَوْا لأهالي كيتو كأنهم قد خرجوا للتوّ من جهنم نفسها، ملفوفين بالأسمال والجلود، وقد غطت أجسادَهم القُرُوحُ، وبلغ بهم الهزال حداً جعل

المال

كان يوسف بن جعفر العامودي يأخذ مبالغ من المال، وكانت كبيرةً جداً أحياناً، من الذين كانوا يأتون للدراسة عنده. وذات يوم قال له قانوني كان في زيارة له: «إن تعليمك يحيرني ويثير إعجابي. وإني لمتأكد أنك توجّه تلاميذك بطريقة لائقة. ولكن ليس مما يتناسب والتقاليد أخذ المال كثمن للمعرفة. وعلاوة على ذلك، فإن هذا العمل عرضة لسوء الفهم». فقال العامودي: «لم أبع أي معلومات قطّ. إذ ليس على وجه الأرض مالٌ يكفي ثمناً للمعرفة. فالامتناع عن أخذ المال لن يمنع سوء التفسير، لأن سوء التفسير سيجد هدفاً آخر. ومن الأفضل أن تعرف أن الرجل الذي يأخذ المال قد يكون طامعاً فيه، وقد لا يكون. ولكن الرجل الذي لا يأخذ شيئاً على الإطلاق معرّض لأفدح شكٍ في أنه يسرق روح تلميذه فالناس الذين يقول أحدهم: «أنا لا آخذ شيئاً» قد يتضح أنهم قد سرقوا إرادة ضحيتهم».

مسبار الأدَمَة
إدريس شاه، 1970

التعرف عليهم مستحيلاً. فقد ظلوا يزحفون أكثر من سنة ونصف سنة في دائرة هائلة على مدى ألفي ميل سيراً على الأقدام. ولم تعطِ المبالغ الضخمة التي اَسْتُثْمِرَتْ في الحملة أيَّ مردود ـ فلم تكن هناك إشارة على إلْ دورادو ولا إشارة تدل على الذهب.

التفسير

وحتى بعد كارثة غونزالو، شنّ الإسبان، حملة بعد حملة، بحثاً عن إلْ دورادو. ومثل بيزارو، كان الغزاة يحرقون القرى وينهبونها، ويعذبون الهنود، ويتحملون مشاقَّ يستحيل تصورها، دون أن يقتربوا من الذهب. ولا يمكن حساب الأموال التي صرفت على مثل تلك الحملات؛ ومع ذلك ورغم عدم جدوى البحث، فقد ظل إغراء الخيال موجوداً.

ولم يقتصر أثر البحث على أنه كلف حياة الملايين، من الهنود والإسبان على حد سواء ـ بل لقد ساعد على دمار الإمبراطورية الإسبانية وخرابها. فقد صار الذهب هاجساً سيطر على إسبانيا. أما الذهب الذي وجد طريقه إليها فعلاً ـ وكان كثيراً ـ فقد أعيد استثماره في المزيد من الحملات، أو في شراء الكماليات الباذخة، بدلاً من الزراعة أو أي جهد منتج آخر. وفرغت مدن إسبانية بكاملها من رجالها الذين انطلقوا للبحث عن الذهب. وخربت المزارع. ولم يعد الجيش يجد مجندين لحروبه الأوروبية. وعند حلول نهاية القرن السابع عشر، كان عدد سكان البلد بكامله قد تقلص إلى النصف. وكان عدد سكان مدينة مدريد أربعمائة ألف، فانخفض إلى مائة وخمسين ألفاً. وبتناقص عائدات جهودها على امتداد كل تلك السنين سقطت إسبانيا في انحطاط لم تستيقظ منه على الإطلاق.

وتتطلب السلطة ضبطاً منتظماً للنفس. ذلك أن احتمالات هبوط الثروة، ولا سيما الثروة السهلة والمفاجئة، تُحْدِثُ فوضى ودماراً في العواطف. ويعتقد الذين يُثْرون فجأة أن المزيد من الثراء ممكن على

الدوام. فالغداء المجاني، أي المال الذي سيسقط في حضنك، هو خلف المنعطف مباشرة.

وفي هذا الوهم يهمل الجشعون كل شيء تعتمد عليه السلطة في الحقيقة: ضبط النفس، وحسن نوايا الآخرين، وما إلى ذلك. **فافهم**: ليس هناك تغير دائم في الحظ يأتي بسرعة، باستثناء شيء واحد، هو الموت. فالثروة المفاجئة نادراً ما تدوم، لأنها لا تقوم على أي شيء صلب. فإياك أن تدع شهوتك إلى المال تغريك بالخروج من قلعة سلطتك الحقيقية المستديمة والحامية لك. اجعل السلطة هدفك وعندئذٍ سيجد المال طريقه إليك. واترك إلْ دورادو للمغفلين والحمقى.

الانتهاك الثاني

في أوائل القرن الثامن عشر، لم تكن لأحد مكانةٌ في المجتمع الإنكليزي تعلو على مكانة دوق ودوقة مارلبورو. كان الدوق قد قاد حملات ناجحة ضد الفرنسيين، فصار يُعْتَبَرُ الجنرالَ والاستراتيجيَّ الأول في أوروبا. وكانت زوجته الدوقة، بعد مناورات كثيرة، قد ثبّتت مكانتها باعتبارها صاحبة الحظوة لدى الملكة آن، التي صارت حاكمة لإنكلترا سنة 1702. وفي سنة 1704، إدَّى انتصار الدوق في معركة بلينهايم، إلى جعله موضعَ الحفاوة الشعبية في إنكلترا. ولمكافأته منحته الملكةُ قطعةَ أرض واسعة في مدينة وودستوك، وأموالاً لبناء قصر عظيم هناك. فأطلق الدوق على بيته المخطط هذا اسم «قصر بلينهايم»، وانتقى له مهندساً معمارياً هو الشاب جون فانبره، الموسوعي المعرفة كرجال عصر النهضة. فقد كان يكتب المسرحيات، ويصمِّم المباني كذلك. وهكذا بدأ عملية الإنشاء في صيف سنة 1705، بكثير من الضجيج والآمال الكبيرة.

وكان في إحساس فانبره المعماري شيء من الدراما. فأراد أن يكون القصر نصباً لألمعية مارلبورو وسلطته، يحتوي على بحيراتٍ اصطناعية، وجسورٍ هائلة، وحدائق مدروسةٍ بإتقان، ولمساتٍ خيالية

الرجل الذي أحبّ المال أكثر من الحياة

كان في قديم الزمان حطّاب عجوز يذهب إلى الجبل كل يوم تقريباً ليحتطب. ويقال إن هذا الرجل كان بخيلاً يحتزن فضّته حتى تتحوّل إلى ذهب، وإنه كان يهتم بالذهب أكثر من اهتمامه بأي شيء آخر في العالم.

وذات يوم انقضّ عليه نمر في البرّيّة، ورغم أنه ركض فإنه لم يستطع، فحمله النمر في فمه. ورأى ابن الحطاب الخطر الذي وقع فيه أبوه، فركض ليتقذه إن كان ذلك ممكناً. وحمل معه ساطوراً.

وبما أنه كان قادراً على الجري أسرع من النمر الذي كان يحمل رجلاً، فسرعان ما لحق به وسبقه. ولم يكن أبوه متأذياً كثيراً لأن النمر كان يمسك به من ملابسه. وعندما رأى الحطاب العجوز أن ابنه على وشك طعن النمر ناداه بفزع شديد: «لا تتلف جلد النمر! فإن كنتَ تستطيع قتله دون إحداث ثقوب في جلده، فإننا نقدر أن نحصل على قطع فضّية كثيرة كثمن له. اقتله، ولكن لا تقطع جسده!»

أخرى غريبة. غير أنه اتضح من اليوم الأول، أنه ليس هناك ما يمكن أن يرضي الدوقة. كانت تعتقد أن فانبره يهدر المال على مجموعة أخرى من الأشجار؛ وكانت تريد أن ينتهي بناء القصر في أسرع وقت ممكن. فقامت بتعذيب فانبره ورجاله العاملين حول كل التفاصيل. واستهلكتها وأرهقتها القضايا الصغيرة التافهة؛ ورغم أن الحكومة كانت هي التي تدفع نفقات بناء قصر بلينهايم، فإن الدوقة راحت تحسب كل بنس. وفي آخر الأمر أدَّى تذمرها حول بلينهايم والأشياء الأخرى كذلك إلى خلق هوّة لا تردم بينها وبين الملكة آن، التي طردتها من البلاط في سنة 1711، وأمرتها بإخلاء شقتها في القصر الملكي. وعندما غادرت الدوقة (وهي تستشيط غضباً على خسارة مركزها وكذلك على خسارة راتبها الملكي) أفرغت الشقة من كل شيء مثبت فيها، نزولاً إلى مقابض الأبواب البرونزية.

وبينما كان الابن يستمع إلى تعليمات أبيه، ركض النمر إلى الغابة مبتعداً على نحو مفاجيء، حاملاً معه الرجلَ العجوز إلى حيث لا يستطيع الولد اللحاق به، وسرعان ما قتله.

«خرافة صينية»
خرافات مختلفة من أماكن مختلفة
تحرير: دايان دي بريما، 1960

وعلى مدى السنوات العشر التالية، كان العمل في بلينهايم يتوقف ثم يبدأ من جديد، بينما صار الحصول على المال من الحكومة أصعب فأصعب. وأخذت الدوقة تعتقد أن فانبره عازمٌ على تدميرها. فكانت تماحك حول حمولة كل عربة من الأحجار، وكل بوشل من الكلس (البوشل مكيال يساوي 8 غالونات أو 32,5 ليتراً). وتحسب كل ياردة زائدة من سياج القضبان الحديدية أو قدم من الكسوة، وتقذف بشتائمها وتقريعها الرجال العاملين، والمقاولين والمسَّاحين لتبذيرهم. وكان مارلبورو، العجوز المُتْعَب، لا يريد أكثر من أن يستقرَّ في القصر في سنواته الأخيرة. ولكن المشروع غرق في مستنقع من الدعاوى القضائية. فقد ادعى العمال على الدوقة مطالبين بأجورهم، فأقامت بدورها دعوى على المهندس المعماري على الفور. وفي وسط المشاحنات مات الدوق دون أن يمضي ليلة واحدة قطّ في «بلينهايمه» المحبوب.

وبعد موت مارلبورو، تبيَّن أنه كان صاحب أملاك شاسعة، تزيد قيمتها على مليوني جنيه استرليني، أي أكثر مما يكفي لإنهاء القصر.

ولكن الدوقة لم تَلِنْ لها قناة. واستمرَّت تحجب أجور فانبره والعمال وفي آخر الأمر طردت المعماريّ. وأكمل الرجل الذي حلَّ محلّه بناء بلينهايم في بضع سنين، متبعاً تصاميم فانبره حرفياً. وتوفي فانبره سنة 1726، ممنوعاً من دخول القصر على يد الدوقة، غير قادر على وضع قدمه في أعظم منجزاته. فقد استبق هذا القصرُ الحركةَ الرومانسية العاطفيةَ الحالمةَ التي ازدهرت في أواخر ذلك القرن، وبدأ اتجاهاً جديداً بكامله في الريازة المعمارية، ولكنه أعطى لخالقه كابوساً دام عشرين عاماً.

التفسير

كان المال عند دوقة مارلبورو أداة لممارسة لعبة ساديّة للسلطة. فكانت ترى خسارة المال رمزاً لخسارة السلطة. ومع فانبره كانت تلوّياته أعمق. فقد كان فناناً عظيماً، وكانت تحسد قدرته على الخلق، وعلى الحصول على شهرة بعيدة عن متناولها. ففكَّرت في أنها قد لا تملك مثل مواهبه ولكنها تملك المال لتعذيبه، وإساءة معاملته على أتفه التفاصيل ـ كي تدمِّر حياته.

غير أن هذا النوع من السَّادية يحمل ثمناً رهيباً. فقد جعلت الإنشاء الذي كان ينبغي أن يستغرق عشرة أعوام يستغرق عشرين عاماً، وسمَّمت عدة علاقات، ونفَّرت البلاط من الدوقة وأبعدتها عنه، وآلمت الدوق بعمق (وهو لم يكن يريد العيش إلاَّ في بلينهايم بسلام). وأخيراً، أيضاً، فإن للأجيال اللاحقة الكلمة الأخيرة: وهذه الأجيال تعترف بفانبره كعبقري، بينما تتذكَّر الدوقةَ إلى الأبد برخصها الشديد.

يجب على الأقوياء ذوي السلطة أن يتحلّوا بعظمة الروح ـ فلا يمكنهم أن يكشفوا أي سفاسف تافهة. والمال هو أكبر المجالات وضوحاً للعيان لعرض العظمة أو التفاهة. فالأفضل إذن أن يُنْفَق بسخاء، وأن يخلق للمرء سمعةً بالكرم تؤتي بدورها ثماراً مربحة في آخر الأمر. فلا تدع التفاصيل المالية تعميك عن الصورة الأكبر حول كيفية رؤية

قصة موسى وفرعون

مكتوب في تواريخ الأنبياء أن موسى أُرْسِلَ إلى فرعون بمعجزات وعجائب وكرامات كثيرة. وكانت حصّة التموين اليومية لمائدة فرعون 4000 خروف، و400 بقرة، و200 جمل، وكمية مناسبة من الدجاج، والسمك، والمشروبات، واللحوم المقلية، والحلويات وغيرها من الأشياء. وكان كل شعب مصر وكل جيشه معتادين على الأكل على مائدته كل يوم. وظلَّ يدَّعي الألوهية أربعمائة عام لم يتوقف خلالها عن تقديم هذه الأطعمة. وعندما دعا موسى ربه أن يدمِّر فرعون، استجاب الله لدعائه وقال له: «سأدمِّره بالماء، وسوف أورثك وقومك ثروته وثروة جنوده». ومرَّت سنوات عديدة بعد هذا الوعد، واستمرّ فرعون، المقضيّ عليه بالدمار، يعيش في أبّهته وفخفخته. وعِيلَ صبر موسى وهو يطلب من الله تدمير

الناس لك. إذْ أن غضبهم سيكلفك الكثير في المدى الطويل. وإذا كنت تريد أن تتدخل في عمل الناس الخلاَّقين المأجورين لديك، فلا أقل من أن تدفع لهم جيِّداً. فأموالك ستشتري خضوعهم أفضل من استعراض سلطتك.

حالات مراعاة القانون

الحالة الأولى

كان بيترو آريتينو، ابن الإسكافي المتواضع قد قذف نفسه كالمنجنيق إلى عالم الشهرة ككاتب أشعار ساخرة عضوضة. ولكنه مثل كل فنان في عصر النهضة كان بحاجة إلى العثور على راعٍ يمنحه طرازاً من الحياة مريحاً دون أن يتدخل في عمله. وفي سنة 1528، قرر آريتينو أن يجرِّب استراتيجية جديدة في لعبة الراعي. فغادر روما، واستقرَّ في البندقية، حيث لم يكن قد سمع به إلاَّ قليلون. وكانت لديه كمية لا بأس بها من المال استطاع أن يوفِّرها، ولكن لم يكن معه شيء آخر. وسرعان ما انتقل إلى منزل جديد، غير أنه فتح أبوابه على مصاريعها للأغنياء والفقراء، يمتعهم بالولائم والتسليات وصادق كل صاحب قارب، وراح يعطيهم إكراميات ملوكية السخاء. وفي الشوارع راح يوزِّع أمواله بكرم، فيعطيها للشحاذين واليتامى والغسَّالات. وبين أهل المدينة العاديين انتشر بسرعة خبر يقول إن آريتينو ليس كاتباً عظيماً فقط، بل هو أيضاً ذو سلطة ـ واحد من النبلاء ذوي الألقاب.

وسرعان ما راح ذوو النفوذ يختلفون إلى منزل آريتينو. وفي غضون بضعة أعوام جعل نفسه من المشاهير المحتفى بهم. فلم يكن من شأن أحدٍ من عليّة القوم أن يغادر البندقية دون أن يزوره. وكلَّفه سخاؤه هذا معظم مدّخراته. ولكنه اشترى له نفوذاً وسمعة حسنة، وهذا هو حجر الأساس الذي تقوم عليه السلطة. وبما أن القدرة على الإنفاق بسخاء كانت امتيازاً للأغنياء في إيطاليا عصر النهضة كما في أي مكان

فرعون، ولم يعد يطيق الانتظار أكثر. وهكذا صام أربعين يوماً، وذهب إلى جبل طور في سيناء. وفي مناجاته لله قال: «إي رب، لقد وعدتني بأنك ستدمِّر فرعون، وهو لم يتخلَّ عن أيٍّ من تجديفاته وادعاءاته المتطاولة على مقام الألوهية. فمتى ستدمِّره؟». فجاء صوت الحق عزَّ وجَلَّ يقول: «يا موسى، إنك تريدني أن أدمِّر فرعون في أقرب وقت ممكن، ولكن ألفَ ألفٍ من عبادي لا يريدونني أن أفعل ذلك أبداً، لأنهم يعيشون من كرمه ويتمتعون بالهدوء في ظل حكمه. وأُقسم بعزتي وجلالي أنني لن أدمِّره ما دام يقدِّم لمخلوقاتي طعاماً وفيراً ورفاهية». فقال موسى. «ومتى سيتم وعدك إذن؟». فقال الله: «سيتم وعدي عندما يمنع إمداداته عن مخلوقاتي. فإذا بدأ بإنقاص كرمه، فاعلم أن ساعته تقترب».

وتصادف أن قال فرعون ذات يوم لهامان: «لقد جمع موسى بني إسرائيل حوله، وهو يسبِّب لنا إزعاجاً. ولا نعرف ما ستكون عاقبة أمره معنا. يجب أن نبقي مخازننا ملأى حتى لا نصبح في أي وقت بلا موارد. ولذا يجب أن ننقص مؤننا اليومية إلى النصف». فأنقص 2000 خروف، و200 بقرة، ومائة جمل، وراح ينقص التموين بطريقة مماثلة كل يومين أو ثلاثة. فعرف موسى أن وعد الحق قد اقترب تنفيذه، لأن الاقتصاد المفرط علامة على الانحطاط ودليل شوم.

آخر، فقد ظنَّت الأرستقراطية أن آريتينو لا بدّ أن يكون رجلاً ذا نفوذ. ما دام ينفق المال كرجل ذي نفوذ. وبما أن نفوذ صاحب النفوذ جدير بأن يُشْتَرَى، فقد راح آريتينو يتلقى كل أنواع الهدايا والأموال. وتنافس الأدواق والدوقات، والتجار الأثرياء والبابوات والأمراء لكسب الحظوة لديه. فراحوا يمطرونه بكل أنواع الهدايا.

وكانت عادات آريتينو في الإنفاق استراتيجيةً طبعاً ولها هدف بعيد وقد نجحت تلك الاستراتيجية كتعويذة سحرية. ولكن للحصول على أموال حقيقية وعلى راحة، فإنه كان بحاجة إلى راعٍ له جيوبٌ عميقةٌ بلا قاع. وبعد أن أجرى مسحاً للإمكانيات، ركَّز أنظاره على مركيز مانطو الشديد الثراء. وكتب قصيدة ملحمية أهداها للمركيز. وكانت تلك ممارسة مألوفة شائعة بين الكتَّاب الباحثين عن رعاية. وفي مقابل إهداء مؤلفاتهم كانوا يحصلون على راتب صغير يكفي لكتابة قصيدة أخرى، بحيث يمضون حياتهم في نوع من العبودية المستمرة. غير أن آريتينو كان يريد السلطة، لا معاشاً تافهاً. فقد يهدي قصيدة إلى المركيز، ولكنه يقدمها إليه كهدية، موحياً بأنه ليس كاتباً مأجوراً يبحث عن راتب، ولكن يوحي بأنه والمركيز متساويان.

ولم يتوقف آريتينو في تقديم هداياه عند هذا الحدّ: فباعتباره صديقاً لاثنين من أعظم فناني البندقية، وهما النحات جاكوبو سانسوفينو والرسام تِيْتيانْ، فقد أقنع هذين الرجلين بالمشاركة في خطته لتقديم الهدايا. وكان آريتينو قد دَرَسَ المركيز قبل أن يبدأ بالعمل لاستغلاله، وكان يعرف ذوقه معرفة كاملة من الداخل والخارج. وكان لذلك قادراً على تقديم النصح لسانسوفينو وتيتيان حول المواضيع التي تسرّ المركيز أكثر من غيرها. ولذا فإنه عندما أرسل إلى المركيز عملاً منحوتاً لسانسوفينو ولوحة من رسم تيتيان كهدية من الفنانين الثلاثة معاً، كان فرح الرجل بها عظيماً جداً.

ويقول أصحاب القصص المأثورة إنه في اليوم الذي اغرق فيه فرعون لم يُذْبَح في مطبخه سوى نعجتين.

فلا شيء أفضل من السخاء... فإذا كان الرجل غنياً، ويرغب في أن يتصرف كسيِّد جوَّاد، ولو لم يكن لديه ميثاق ملكي؛ وإذا أراد أن تَنْثُر له جباه الرجال، وأن يبجِّلوه ويُسَمُّوه مولاهم وأميرهم، فقل له أن يمدَّ كلَّ يوم مائدة طعام. إذ إن كل مَنْ حصلوا على الشهرة في العالم قد كسبوها من خلال كرم ضيافتهم بشكل رئيسي. أما البخلاء والجشعون، فهم محتقرون في الدنيا والآخرة.

كتاب الحكم، أو: قواعد للملوك
نظام الملك، القرن الحادي عشر

وعلى امتداد الأشهر القليلة التالية، أرسل آريتينو هدايا أخرى ـ سيوفاً، وسروجاً، وزجاجياتٍ مما تخصَّصت به مدينة البندقية، وأشياء كان يعلم أن المركيز يحبها ويقدِّرها. وسرعان ما بدأ هو وسانسوفينو وتيتيان يتلقون هدايا من المركيز في المقابل. وسارت الاستراتيجية إلى ما هو أبعد. فعندما وجد صهرُ صديقٍ لآريتينو نفسه في السجن، استطاع آريتينو أن يجعل المركيز يرتِّب أمر إطلاق سراحه. وكان صديق آريتينو تاجراً ثرياً ورجلاً ذا نفوذ عظيم في البندقية. وبتحويل النيّة الحسنة التي أقامها مع المركيز إلى استخدام عملي، اشترى آريتينو عرفان ذلك الرجل الذي صار مديناً له أيضاً، وسوف يساعد بدوره آريتينو عندما يكون قادراً على ذلك. وهكذا راحت دائرة النفوذ تتسع أكثر فأكثر. واستطاع آريتينو، مرة بعد أخرى، أن يستفيد من السلطة السياسية الهائلة للمركيز، الذي ساعده أيضاً في علاقاته الغرامية الكثيرة بنساء البلاط.

غير أن العلاقة توترت في آخر الأمر حالما أخذ آريتينو يشعر بأنه كان على المركيز أن يرد على كرمه بصورة أفضل. ولكن آريتينو لم يشأ أن يهبط بنفسه إلى مستوى الاستجداء والنحيب. وبما أن تبادل الهدايا بين الرجلين قد جعلهما متساويين، فلم يكن من اللائق أن يطرح موضوع المال. فانسحب آريتينو ببساطة من دائرة المركيز، وراح يتصيَّد فريسة أخرى من الأثرياء. فاستقرَّ رأيه أول الأمر على الملك الفرنسي فرنسيس، ثم آل مديتشي، فدوق أوربينو، فالإمبراطور شارل الخامس وغيرهم. وفي آخر الأمر، فإن وجود رعاة كثيرين كان يعني أنه غير مضطرّ إلى الانحناء لأي واحد منهم. وصارت سلطته تضاهي سلطة لورد من النبلاء عظيم.

التفسير

كان آريتينو يتفهَّم الخصائص الأساسية للمال:

فأولاً: يجب أن يُتَدَاوَلَ لكي يجلب السلطة. فما يجب أن يشتريه

المال ليس سلعاً لا حياة فيها، بل نفوذاً، وسلطةً على الناس. وبإبقاء المال في تداول مستمر، اشترى آريتينو دائرة نفوذ آخذة في الاتساع أبداً، بحيث أنها عوَّضته عما أنفقه في آخر الأمر.

وثانياً: كان آريتينو يتفهم الصفة الأساسية للهدية. فتقديم هدية يعني الإيحاء ضمناً بأنك ومُتَلَقِّيها متساويان على أقل تقدير، أو أنك متفوِّق على المتلقِّي. كما تنطوي الهدية على عرفان أو التزام؛ فمثلاً، عندما يقدِّم لك الأصدقاء شيئاً مجاناً، يمكنك التأكد أنهم يتوقعون منك شيئاً في المقابل. ولكي يحصلوا عليه فإنهم يجعلونك تشعر بأنك مدين لهم (وقد يكونون واعين أو غير واعين بهذه الآلية، ولكن هذه هي الطريقة التي تعمل بها هذه المسألة).

وتجنب آريتينو مثل هذه العقبات المعيقة لحريته. وبدلاً من التصرُّف كشخص وضيع يتوقع من القوي ذي السلطة أن يدفع له نفقات حياته، فقد قَلَبَ الحركة إلى الاتجاه المعاكس. وبدلاً من أن يكون مديناً لذوي السلطة الأقوياء فقد جعلهم هم المدينين له. وكان هذا هو الهدف من تقديمه للهدايا ـ كانت سُلَّماً صعد به إلى أعلى المستويات الاجتماعية. وعند نهاية حياته كان قد صار أشهر كاتب في أوروبا.

إفهم: قد يقرِّر المال علاقات السلطة. ولكن لا حاجة إلى اعتماد تلك العلاقات على كمية المال التي تملكها؛ وهي تعتمد أيضاً على الطريقة التي تستخدمها. فذوو السلطة الأقوياء يعطون بسخاء، مشترين نفوذاً بدلاً من الأشياء. فإذا قبلت مركزاً ناقصاً لأنه ليست لديك ثروة بَعْدُ، فقد تجد نفسك في هذا المركز إلى الأبد. فمارس الخدعةَ التي مارسها آريتينو على الأرستقراطية الإيطالية. تخيَّل نفسك مساوياً لهم. والعب دور اللورد النبيل، فأعطِ بسخاء، وافتح أبوابك، واطرح أموالك في التداول، واخلق واجهة سلطة من خلال عملية كيميائية تُحَوِّل المال إلى نفوذ.

الحالة الثانية

بعد وقت قصير من تكوين البارون جيمس روتشيلد لثروته في باريس في أوائل عشرينات القرن التاسع عشر، واجه مشكلة معقَّدة للغاية: كيف يستطيع يهودي، وألماني، غريب غربةً كليّةً عن المجتمع الفرنسي، أن يكسب احترام الطبقات الفرنسية العليا المصابة بالخوف من الأجانب؟ وكان روتشيلد يفهم السلطة ـ كان يعرف أن ثروته ستأتي له بالمكانة، ولكنه إذا بقي مُبْعَداً اجتماعياً، فلن تستمر مكانته ولا ثروته. وهكذا نظر إلى مجتمع عصره وسأل: ما الذي يمكن أن يكسب قلوبهم؟ الأعمال الخيرية؟ لن يهتم الفرنسيون بشيء أقل من اهتمامهم بها. النفوذ السياسي؟ لديه هذا. وإن كان له من أثر، فإنه لم يزد الناس إلاَّ تشككاً فيه. وهكذا قرَّر أن نقطة الضعف الوحيدة هي السأم. وفي فترة إعادة الملكية، كانت الطبقات الفرنسية العليا تشعر بالسأم. وهكذا شرع روتشيلد ينفق مبالغ مذهلة من المال على إمتاعهم ومؤانستهم. فاستأجر أفضل المعماريين في فرنسا لتصميم حدائقه، وقاعة حفلاته، واستأجر ماري ـ أنطوان كاريم، أشهر طهاة فرنسا على الإطلاق، لتهيئة أبذخ الحفلات التي شهدتها باريس في تاريخها؛ ولم يكن أي فرنسي قادراً على المقاومة، حتى ولو أن الذي يقيم الحفلات يهودي ألماني. وبدأت أمسيات روتشيلد الأسبوعية تجتذب عدداً أكبر فأكبر. وعلى مدى السنوات القليلة التالية كسب الشيء الوحيد الذي من شأنه تأمين سلطة شخص خارجيّ، وهو: القبول الاجتماعي.

الجلباب الناري الألوان

أثناء حملة تميز على مصر، زار ذلك البلدَ عددٌ كبير من اليونانيين لسبب أو لآخر، بعضهم للتجارة، كما يمكن للمرء أن يتوقع، وبعضهم ليخدموا في الجيش، وآخرون بدافع الفضول المحض دون شك، لرؤية ما يستطيعون أن يشاهدوه. وكان من بين أولئك المتفرجين سايلوسون بن آياسيس، الشقيق المنفيّ لبوليقريطيس، من ساموس. وبينما كان سايلوسون في مصر، جاءته ضربة حظ خارقة للعادة. فقد كان يتسكع في شوارع ممفيس وهو يرتدي جلباباً ناريّ الألوان، عندما تصادف أن رآه داريوس، الذي كان في ذلك الوقت واحداً من حرّاس تميز، ولم يكن قد اكتسب أية أهمية خاصةً بَعْدُ؛ فتملّكته رغبة مفاجئة في امتلاك ذلك الجلباب. فاقترب من سايلوسون وقدّم إليه عرضاً للحصول عليه. وكانت لهفته الشديدة للحصول عليه واضحة لسايلوسون بما فيه الكفاية، فألهمه ذلك أن يقول: «إنني

التفسير

إن السخاء الاستراتيجي هو سلاح عظيم لبناء قاعدة الدعم، وخاصةً للشخص الخارجي الغريب. ولكن البارون دي روتشيلد كان أبرع من ذلك أيضاً. فقد كان يعلم أن أمواله هي التي خلقت الحاجز بينه وبين الفرنسيين، فجعلته يبدو قبيحاً وغير جدير بالثقة. وكانت أفضل طريقة للتغلب على ذلك هي تبذير مبالغ ضخمة حرفياً، كإشارة إلى

تقديره للمجتمع الفرنسي وثقافته أكثر من تقديره للمال. وما فعله روتشيلد يشبه مهرجانات هدايا الشتاء الشهيرة في الغرب الأميركي الأوسط، حيث كانت قبيلة من الهنود الحمر تدمِّر ثروتها كلها بشكل دوري في احتفالات هائلة وألعاب نارية كرمز لقوَّتها وسلطتها على القبائل الأخرى. فلم يكن أساس سلطتها هو المال، بل القدرة على الإنفاق، وثقتها بتفوّق من شأنه أن يعيد إليها كل ما دمَّرته المهرجانات الاحتفالية.

وفي آخر الأمر، عكست حفلات البارون المسائية رغبته في الاختلاط ليس في الوسط التجاري لفرنسا فحسب، بل في مجتمعه أيضاً وبإهدار الأموال على حفلاته الضخمة، كان يأمل أن يوضح أن سلطته تتخطَّى المال إلى مملكة الثقافة الأنفس والأهم. ربما يكون روتشيلد قد كسب القبول الاجتماعي. ولكن قاعدة الدعم التي كسبها كانت شيئاً لا يشتريه المال وحده. فلكي يضمن ثروته كان عليه أن «يهدرها». فهذا هو السخاء الاستراتيجي باختصار، أي أنه القدرة على أن تكون مَرِناً مع ثروتك، فتشغّلها، لا لشراء الأشياء، بل لكسب قلوب الناس.

الحالة الثالثة

كان آل مديتشي في فلورنسا عصر النهضة قد أقاموا سلطتهم الهائلة على الثروة التي جمعوها من أعمال الصيرفة. ولكن في جمهورية فلورنسا التي امتد عمرها قروناً كانت فكرة شراء السلطة بالمال مضادة لقيم الديمقراطية التي تعتزّ بها المدينة. غير أن كوزيمو دي مديتشي، أول فرد من العائلة يكسب شهرة عظيمة تحايل على هذا المبدأ بالبقاء بعيداً عن الأضواء. فلم يستعرض ثروته بتفاخر أو ازدهاء. ولكن عندما وصل حفيده لورينزو إلى سن الرشد، في أربعينات القرن الخامس عشر، كانت ثروة العائلة قد بلغت حداً مفرطاً من الفحش، وصار نفوذها بارزاً إلى حد لم يعد معه من الممكن إخفاؤه بأي تمويه.

فقام لورينزو بحلِّ هذه المشكلة بطريقته الخاصة، بتطوير

لن أبيع هذا الجلباب بأية أموال، ولكن إن كان لا بد لك من امتلاكه، فسوف أعطيك أياه مجاناً». فشكره داريوس على ذلك بحرارة وأخذ الجلباب. كان سايلوسون في تلك اللحظة لا يفكّر إلاّ في كونه قد فَقَدَ الجلبابَ بسبب طيبته الحمقاء؛ ثم جاء موت قمبيز، وثورة السبعة ضد المجوس، واعتلاء داريوس العرش. فسمع سايلوسون الخبر بأن الرجل الذي سبق له أن لبّى طلبه في مصر بإعطائه الجلباب الناريّ الألوان قد صار ملك فارس. فهرع إلى سوسه وجلس على مدخل القصر الملكي. وادّعى بأنّه مشمولٌ بالقائمة الرسمية للمحسنين إلى الملك. فنقل الحارس المناوب ادعاءه هذا إلى داريوس، الذي سأل في دهشة عمَّن يكون ذلك الرجل، وقال: «حقاً.. بما أنني لم أتسنَّم العرش إلاّ مؤخراً، فلا يمكن أن يكون هناك أي إغريقي أنا مدين له بخدمة. فلم يَكَدْ أحدٌ منهم يأتي إلى هنا بَعْدُ، وأنا لا أتذكّر بالتأكيد أنني مدين بأيّ شيء لشخص إغريقي. ولكن آذَنْهُ مع ذلك، لكي أعرف ما الذي يقصده بادعائه هذا».

فاصطحب الحارسُ سايلوسونَ إلى حضرة الملك، وعندما سأله المترجمون من يكون، وما الذي فعله لتبرير الزعم بأنه من المحسنين إلى الملك، ذكّر داريوسَ بقصة الجلباب، وقال إنه الرجل الذي أعطاه إياه. فقال داريوس: «أيها

استراتيجية الإلهاء، التي ظلَّت تخدم أصحاب الثراء منذ ذلك الحين. فصار من ألمع رعاة الفنون الذين عرفهم التاريخ على الإطلاق. فلم يكتفِ بالإنفاق بسخاء باذخ على اللوحات، بل خلق أفضل مدارس إيطاليا لتدريب الفنانين الشباب. وفي إحدى هذه المدارس لفت الشابُّ مايكل آنجيلو نظر لورينزو لأول مرة. فدعا الفنان إلى العيش في بيته. وفعل الشيء نفسه مع ليوناردو دا فنشي. وعندما صار هذان الفنانان تحت جناحه، ردًّا على كرمه فصارا مواليين له ومستقرَّين تحت رعايته.

وكلما كان لورينزو يواجه عدواً، كان يشهر سلاح الرعاية. فعندما هدَّدت بيزا، عدوّة فلورنسا التقليدية، بالتمرُّد عليها في سنة 1472، استرضى لورينزو الناس بصبّ الملايين في جامعة بيزا، التي كانت مناط فخرها وفرحها، ولكنها كانت قد فقدت بريقها منذ زمن طويل. ولم يكن لدى أهل بيزا دفاع ضد هذه المناورة الماكرة، التي غذَّت حبهم للثقافة وثلمت حدَّة رغبتهم في خوض معركة.

التفسير

لا شك أن لورينزو كان يحب الفنون. ولكن رعايته للفنانين كانت لها مهمة عملية كذلك. وكان لورينزو على وعي عميق بهذه المهمة. ففي فلورنسا في ذلك العصر كانت الصيرفة أقل طرق كسب المال إثارة للإعجاب، ومن المؤكد أنها لم تكن مصدراً محترماً للسلطة. وكانت الفنون هي القطب الثاني، قطب التسامي شبه الدينيّ. وبالإنفاق على الفنون خفَّف لورينزو من حدَّة وطأة الآراء في المصدر القبيح لثروته. وبذلك تنكَّر في زي النبلاء. فليس هناك استخدام للسخاء الاستراتيجي أفضل من إبعاد الانتباه عن حقيقة كريهة، ومن أن يلفَّ المرء نفسه بعباءة الفن أو الدِّين.

الحالة الرابعة

كانت للويس الرابع عشر عينا نسر في الاطلاع على السلطة

السيِّد، إنك أكرم الناس. لأنك أعطيتني هدية وأنا لا أزال شخصاً بلا سلطة ولا أهمية، وربما كانت هديتك صغيرة، ولكنها تستحق مني عرفاناً كأروع الهدايا اليوم. وسأعطيك في مقابلها فضة وذهباً أكثر مما تستطيع أن تحصي كي لا تندم أبداً على إسدائك معروفاً لداريوس بن هيستاسبيس». فردَّ سايلوسون: «يا سيِّدي، لا تعطني ذهباً ولا فضة. ولكن أعد لي ساموس، الجزيرة التي فيها موطني، والتي هي في يد أحد خدمنا، منذ أن قام أورونتيس بقتل شقيقي بوليقريطيس. فلتكن ساموس هي هديتك لي، ولكن لا تدع أي رجل في الجزيرة يقتل أو يُسترَق»

فوافق داريوس على طلب سايلوسون، وأرسل قوّة بإمرة أرتافرنيس، أحد السبعة، ومعه أوامر بأن يفعل كل شيء يطلبه منه سايلوسون.

التواريخ
هيرودوتس، القرن الخامس ق. م

الاستراتيجية للمال. فعندما جاء إلى العرش كانت طبقة النبلاء قد أثبتت أنها شوكة في جنب الملكية، وكانت تجيش بالتمرد. وهكذا أفقر هؤلاء الأرستقراطيين بجعلهم ينفقون مبالغ هائلة على الحفاظ على مركزهم في البلاط. وعندما جعلهم معتمدين على السخاء الملكي في تدبير معيشتهم، أوقعهم في براثنه.

وبعد ذلك أخضعهم لويس بالسخاء الاستراتيجي الذي كان يعمل كما يلي: كلما لاحظ رجل حاشية عنيداً كان لويس بحاجة إلى كسب نفوذه، أو إلى إخماد إثارته للمتاعب، استخدم ثروته الهائلة لتليين التربة. فكان يتجاهل ضحيته أول الأمر، مما يثير قلق ذلك الرجل، ثم يكتشف الرجل أن ابنه قد أعطيت له فجأة وظيفة جيدة الراتب، أو أن أموالاً قد أُنفِقَت في منطقته المحلية حرفياً بالفعل، أو أنه قد أُعْطِيَ لوحة كان يتشوَّق إلى امتلاكها منذ زمن طويل. وهكذا تتدفق الهدايا من يدي لويس. وأخيراً، بعد أسابيع أو أشهر، كان لويس يطلب المعروف الذي كان محتاجاً إليه من البداية. وبذلك كان الرجل الذي أقسم أن يفعل أي شيء لإيقاف الملك يجد أنه قد فقد الرغبة في القتال. فلو عُرِضَت عليه رشوةٌ مباشرةٌ لَجَعَلَتْهُ متمرِّداً. كانت طريقة لويس أدهى وأمكر. فعندما كان لويس يواجه تربة صلدة لا ينبت فيها شيء، كان يفكِّك تلك التربة قبل أن يغرس فيها بذوره.

التفسير

كان لويس الرابع عشر يفهم أن هناك عنصراً عاطفيّا عميق الجذور في موقفنا من المال، وهو عنصر يعود إلى أيام الطفولة. فعندما نكون أطفالاً، تتركز على الهدايا كل مشاعرنا المعقدة إزاء والدينا. فنحن نرى إعطاء الهدايا كرمز للحب والقبول. وذلك العنصر العاطفي لا يزول أبداً. فمتلقّو الهدايا، مالية كانت أم غير ذلك، يصبحون فجأة ضعفاء مكشوفين كالأطفال، خاصة عندما تأتي الهدية من شخص ذي سلطة. فهم لا

يستطيعون أن يمتنعوا عن الانفتاح، فقد تراخت عزيمتهم، تماماً كما كان لويس يفكّك التربة ويليّنها.

ولتحقيق أفضل نجاح، ينبغي أن تأتي الهدية فجأة ومن الفراغ. وأن تكون رائعة ولافتة للنظر من حيث أنه لم يسبق لها مثيل أبداً، وأنه سبقها بردود ونفور من مُقَدِّمها. وكلما زاد عدد المرَّات التي تقدّم فيها الهدايا لأناس معيَّنين، انثلمت حدّة هذا السلاح أكثر. فإن لم يأخذوا هداياك على أنها تحصيل حاصل، منقلبين إلى وحوش من عدم العرفان، فإنهم سيغضبون ممّا يبدو لهم صَدَقَة. فالهدية المفاجئة، غير المتوقعة، والمقدَّمة مرَّة واحدة، لن تفسد أطفالك، بل إنها ستبقيهم خاضعين لك.

الحالة الخامسة

ذات مرة، توقف فوشيميا، تاجر التحف القديمة الذي كان يعيش في مدينة إيدو (الاسم السابق لطوكيو) في القرن السابع عشر، في صالون شاي تابع لإحدى القرى، وبعد أن استمتع بكوب من الشاي، أمضى عدة دقائق يحدِّق في الكوب، الذي دفع ثمنه في آخر الأمر وأخذه معه. وكان هناك فنان يدوي محلّي يراقب هذا الأمر، فانتظر حتى غادر فوشيميا الدكان، واقترب من المرأة العجوز التي كانت تملك صالون الشاي وسألها عن ذلك الرجل مَنْ يكون. فأخبرته أنه أشهر خبير في اليابان، وتاجر تحف قديمة من أتباع اللورد إيزومو. فركض الفنان اليدويّ خارجاً من الدكان، ولحق بفوشيميا وتوسَّل إليه أن يبيعه ذلك الكوب الذي لا بدَّ أن يكون ثميناً ما دام فوشيميا قد حكم بأنه كذلك. فضحك فوشيميا من قلبه وقال موضحاً: «إنه ليس سوى كوب عادي من فخار بَايْزِنْ، وليس ثميناً على الإطلاق. وإن سبب تحديقي فيه هو أن البخار كان يبدو معلَّقاً فوقه بشكل غريب»، وتساءلت عما إذا كان هناك تسرُّب في مكانٍ مّا منه (كان أتباع تقاليد حفلة الشاي يهتمون بكل جمال غريب أو غير متوقع في الطبيعة). وبما أن الفنان اليدوي ظلَّ متحمساً للكوب فقد أعطاه إياه فوشيميا مجاناً.

لا يُعْرَفُ المال على شيء أكثر فائدةً من حالة أخذه منك بطريق الغشّ، لأنك تكون بذلك قد اشتريت الحكمةَ بصرية واحدة.

آرثر شوبنهاور
1860 ـ 1788

وتجوَّل ذلك الفنان بالكوب، محاولاً العثور على خبير يقدِّر قيمته بثمن عال. ولكن، بما أنهم جميعاً عرفوا أنه كوب شاي عادي، فإنه لم يصل إلى أية نتيجة. وسرعان ما راح يهمل تجارته، مفكِّراً فقط في الكوب وفي الثروة التي يمكن أن يأتي بها. وأخيراً ذهب إلى أيدو ليتحدَّث إلى فوشيميا في دكانه. وهناك أدرك تاجر التحف القديمة أنه، عن غير قصد منه، قد سبَّب لهذا الرجل آلاماً بجعله يعتقد أن للكوب قيمة عظيمة، فدفع له مائة ريو (قطعة ذهبية) ثمناً للكوب من باب الشفقة والإحسان. وكان الكوب فعلاً شيئاً عادياً. ولكنه أراد أن يخلِّص الفنان اليدوي من الفكرة التي تسلَّطت عليه، ويسمح له في الوقت نفسه أن يشعر بأن جهده لم يذهب سدىً. فشكره الفنان اليدوي وذهب إلى حال سبيله.

وسرعان ما انتشر خبر شراء فوشيميا لكوب الشاي. فبدأ كل تاجر في اليابان يثير ضجة ويطالبه ببيعه، ما دام الكوب الذي اشتراه بمائة ريو لا بدَّ أن يستحق ثمناً أكبر من ذلك بكثير. وحاول فوشيميا أن يشرح ظروف شرائه للكوب، ولكن لم يكن هناك أي شيء يثني عزيمة تجَّار التحف. واستجاب لهم فوشيميا أخيراً ووضع الكوب للبيع في مزاد.

وأثناء المزاد، عرض اثنان من المشترين مائتي ريو ثمناً لذلك الكوب، وقدَّما عرضهما في وقت واحد، ثم شرعا يتشاجران حول مَنْ منهما قدَّم عرضه أولاً. وأدَّى شجارهما إلى الدقّ على الطاولة وقلبها. فسقط الكوب على الأرض وتكسَّر إلى قطع عديدة. وكان واضحاً أن المزاد قد انتهى. فلصق فوشيميا قطع الكوب وأصلحه، ثم خزنه في مكان بعيد، معتقداً أن الأمر قد انتهى. غير أنه بعد سنوات زاره أستاذ حفلات الشاي العظيم ماستوديرا فوماي في مخزنه، وطلب من فوشيميا أن يرى ذلك الكوب، الذي كان قد صار أسطورياً في ذلك الوقت. وتفحصه فوماي، فقال: «لا قيمة كبيرة له كقطعة. ولكن أستاذ حفلات الشاي، يقدِّر العاطفة والذكرى المرتبطة بالكوب أكثر من قيمته في حد

هدية من السمك

كان كونغ. بي هُنْيُو، رئيس وزراء لو، مولعاً بالسمك. ولذا كان أهالي البلد جميعاً يشترون السمك بنوايا مخلصة كي يهدوه إليه. غير أن كونغ بي لم يكن يقبل الهدايا. واعترض أخوه الأصغر على ذلك وقال له: «إنك تحب السمك حقاً، فلِمَ لا تقبل السمك المهدى إليك؟». فقال هُنْيُو:

ذاتها». ثم اشترى الكوب بمبلغ مرتفع. وهكذا أصبح كوب مكسَّر وملصوق القِطَع من الأعمال الأقلّ من العادية واحداً من أشهر التحف المقتناة في اليابان.

«إن حبّي للسمك هو السبب الوحيد الذي يجعلني أرفض السمك الذي يقدّمونه لي. فالحق أنني لو قبلت السمك لوضعت نفسي تحت واجب العرفان لهم. وسأضطر عندئذٍ إلى تَنَحّي القانون فأُطْرَدُ من رئاسة الوزارة. وبعد طردي من منصبي لن أتمكّن من تزويد نفسي بالسمك. وعلى العكس، فإن لم أقبل السمك منهم، ولم أُطْرَدْ من رئاسة الوزارة مهما كنتُ مولعاً بالسمك، فإنني سأتمكّن دوماً من تزويد نفسي بالسمك».

هان . في . تزو
فيلسوف صيني
من القرن الثالث
قبل الميلاد

التفسير

توضح القصة أولاً: جانباً جوهرياً من جوانب المال، وهو أن البشر هم الذين خلقوه، والبشر هم الذين يغرسون فيه المعنى والقيمة. وثانياً: إن أكثر ما يقدره رجل الحاشية، سواء في الأشياء أم في المال، هي العواطف والمشاعر الكامنة فيها ـ فهي الأشياء التي تجعلها جديرة بالامتلاك. والدرس بسيط: كلما زاد استغلال هداياك وتصرفاتك السخيّة للعاطفة زادت سلطتها وتأثيرها. فالشيء أو المفهوم الذي يستغل العاطفة المشحونة، أو يضرب على وتر عاطفي، له تأثير أكثر من المال الذي تبعثره على هدية باهظة الكلفة ولكن لا حياة فيها.

الحالة السادسة

كان آكيموتو سوزوتومو، ثرياً من أتباع حفلة الشاي. فأعطى وَصِيفَهُ، ذات مرة، مائة ريو (قطعة ذهبية) وأمره أن يشتري طاسة شاي كان يعرضها تاجر معيَّن. وعندما رأى الوصيفُ الطاسةَ شكَّ في استحقاقها لذلك الثمن، وبعد كثير من المساومة، خفض ثمنها إلى 95 ريواً. وبعد أيام، بعد أن بدأ سوزوتومو يستخدم الطاسة، أخبره الوصيف متفاخراً بما صنع. فردَّ عليه سوزوتومو: «إن طاسة شاي يطلب أي شخص مائة ريو ثمناً لها لا يمكن أن تكون إلاَّ إرثاً عائلياً نفيساً، وشيئاً لا تبيعه الأسرة إلاَّ تحت وطأة حاجتها إلى المال. وفي تلك الحال، فإنهم يأملون أن يجدوا شخصاً مستعداً لدفع مائة وخمسين قطعة. وإذن فما نوع الشخص الذي لا يأخذ مشاعرهم في الحسبان؟ وبغضّ النظر عن هذا تماماً، فإن تحفةً تدفع مائة ريو ثمناً لها هي شيء جدير بالاقتناء. أما التي تكلِّف خمسة وتسعين فقط، فإنها تعطي انطباعاً بالحقارة. وهكذا لا

تدعني أرى طاسة الشاي تلك مرة أخرى أبداً». وأغلق على الطاسة بعيد فلم يخرجها أبداً.

التفسير

عندما تصرّ على أن تدفع أقلّ فقد توفّر خمس ريوات، ولكن الإهانة التي تسبّبها، والانطباع الرخيص الذي تخلقه سينتقصان من سمعتك. والسمعة شيء يقدره ذوو السلطة عالياً وأغلى من كل شيء. فتعلَّم أن تدفع الثمن الكامل ـ فذلك سيوفّر عليك الكثير في آخر الأمر.

الحالة السابعة

في وقتٍ مّا قرب بداية القرن السابع عشر في اليابان، كانت مجموعة من الجنرالات تقتل الوقت قبل معركة كبرى بإقامة مباراة لتسم البخور. ووضع كل مشترك جائزةً للفائزين في المباراة، فشملت الجوائز أقواساً وأسهماً وسروجاً وأشياء أخرى مما يحبّ المحارب امتلاكه.

وتصادف أن مرَّ بهم النبيل العظيم اللورد ديت ماساميون، فأغري بالاشتراك. فقدَّم جائزة هي اليقطينة الزخرفية التي كانت تتدلَّى من حزامه. فضحك الجميع، لأنه لم يكن أحد يريد الفوز بهذا الشيء الرخيص. وأخيراً قبل أحدُ أتباع المضيف اليقطينة.

وعندما انفضَّ الحفل وانهمك الجنرالات في الثرثرة خارج الخيمة جاء ماساميون بحصانه الرائع وأعطاه لذلك التابع، قائلاً: «خذ، لقد جاء الحصان من اليقطينة». وعندئذٍ فوجيء الجنرالات المذهولون وندموا على استخفافهم بهدية ماساميون.

التفسير

كان ماساميون يفهم ما يلي: إن المال يعطي صاحبه القدرة على تقديم المسرَّة للآخرين. وكلما زادت قدرتك على ذلك، اجتذبتَ إعجاباً أكبر. وعندما تجعل الحصان يخرج من اليقطينة، فإنك تظهر أقصى ما لديك من سلطة.

لم أكن آخذ الأموال إلاّ من المقتدرين، الذين كانوا على استعداد للدخول معي في مخططات تخيَّلوا أنها سوف تسلب الآخرين. كانوا يريدون المال لأجل المال. أما أنا فكنت أريده بسبب الكماليات الباذخة والمسرّات التي من شأنه أن يجلبها لي. ونادراً ما كانوا يهتمُّون بالطبيعة البشرية. بل كانت معرفتهم بإخوتهم البشر قليلة، واهتمامهم بهم أقل. ولو كانوا دارسين أكثر جدّية للطبيعة الإنسانية، ولو خصّصوا وقتاً أكثر للصحبة الإنسانية، وأقل لمطاردة الدولار الجبّار، لما صاروا أهدافاً سهلة للاحتيال إلى هذه الدرجة.

«بالوكيد» ويل (الغلام الأصفر)
1876 ـ 1975

صورة: النهر. لحماية نفسك أو لتوفير
الموارد، فإنك تضع عليه سداً. غير أن
مياهه سرعان ما تصبح غائرة
وموبوءة. فلا تستطيع أن تعيش في
مثل هذه المياه الراكدة إلاَّ أعفن
أشكال الحياة. فلا تصلح لأي
ملاحة. وتتوقف التجارة عليها. حطِّم
السدّ، وعندما تتدفق المياه وتتحرَّك،
فإنها تولد الوفرة، والثروة، والقوة في
دوائر تتسع بإطراد. فيجب أن يفيض
النهر بشكل دوري كي تزدهر الأشياء الجيِّدة.

الشاهد: إن الرجل العظيم إذا كان بخيلاً فإنه أحمق عظيم الحمق. ولا يمكن لرجل في الأماكن العليا أن تكون له رذيلة مؤذية أكثر من الجشع. فالرجل البخيل لا يستطيع أن يكسب أرضاً أو ألقاباً، لأنه لا يملك مدداً وفيراً من الأصدقاء الذين يمكنه أن ينفذ إرادته بهم ومن خلالهم. إن كل من يريد أن يكون له أصدقاء يجب أن لا يحب ممتلكاته، بل يتعيَّن عليه أن يحصل على الأصدقاء عن طريق الهدايا الجيِّدة. فمثلما يجذب حجرُ المغناطيس الحديدَ إلى نفسه، فكذلك تجتذب كميات الذهب والفضة التي ينفقها رجلٌ مَا قلوبَ الرجال.

(غليوم دي لوريس، 1200، 1238: قصة الزهرة)

الانقلاب

إن الأقوياء ذوي السلطة لا ينسون أبداً أن ما هو مقدَّمٌ مجاناً ينطوي حتماً على خدعة. فالأصدقاء الذين يسدون أنواعاً من المعروف

والجميل دون أن يطلبوا لها ثمناً إنما يطلبون شيئاً أغلى بكثير من المال الذي كان يمكن أن تدفعه لهم. ففي الصفقة مشاكل مستورة، ماديّة ونفسيّة معاً. وإذن فتعلَّم أن تدفع، وتدفع جيِّداً.

ومن جهة أخرى، يقدِّم هذا القانون فرصاً عظيمة للسلب والاحتيال إذا طبقته من الجانب الآخر. إن الإدلاء بإغواء الغداء المجاني هو عدة المهنة وعتادها لفناني الاحتيال.

ولم يكن أحد أبرع في هذا المجال من أنجح فناني الاحتيال في عصرنا جوزيف ويل، المعروف أيضاً بلقب «الغلام الأصفر: يالوُكِيدْ». فقد تعلَّم في وقت مبكر أن ما يجعل النصب ممكناً هو طمع إخوته من بني البشر. فكتب ذات مرة: «إن هذه الرغبة للحصول على شيء مقابل لا شيء كانت باهظة الكلفة لكثير من الناس الذين تعاملوا معي ومع محتالين آخرين... فعندما يتعلَّم الناس ـ وأشكّ في أنهم سيتعلَّمون. أنه لا يمكنهم الحصول على شيء في مقابل لا شيء، فعندئذٍ ستتناقص الجريمة، ونعيش في انسجام أكبر». وعلى مدى السنين، ابتكر جوزف ويل طرقاً كثيرة لإغواء الناس باحتمالات الحصول على أموال سهلة. فكان يقدِّم عقارات «مجانية» ـ ومن يستطيع أن يقاوم عرضاً كهذا؟ . ثم يكتشف المغفلون أن عليهم أن يدفعوا 25 دولاراً لتسجيل البيع. وبما أن الأرض مجانية، فقد كانت تبدو جديرة بالأجرة العالية، وعندئذٍ كان يالوكيد يجمع ألوف الدولارات من عمليات التسجيل المزيَّف. وفي مقابل ذلك، كان يعطي مغفليه المخدوعين صكوكاً مزوَّرة. وفي أحيان أخرى كان يخبر المغفلين عن سباق خيل مدبّر مسبقاً ليفوز فيه الحصان الفلاني بالذات، أو عن أسهم سترتفع أسعارها بنسبة 200 في المائة في غضون بضعة أسابيع. وبينما كان ينسج قصصه كان يراقب كيف تنفتح عيون المغفلين واسعة على فكرة الغداء المجاني. والدرس بسيط: ضع في أحابيلك طعماً هو إمكانية الحصول على مال سهل. فالناس كسالى من ناحية جوهرية، ويريدون الثروة أن تهبط في حضنهم بدلاً من أن

يعملوا لها. فلقاء مبلغ صغير، بِعْهُمْ مشورة حول كيفية كسب الملايين (وقد فعل ذلك ب. ت. بارنوم في أواخر أيام حياته)، وسوف يتحوَّل ذلك المبلغ إلى ثروة عند ضربه بالمغفلين الذين يعدون بالألوف. فاجتذب الناس بغواية احتمال حصولهم على مال سهل. وسوف ينفسح لك مجال لتشغيل أحابيل أخرى عليهم، ما دام الطمع سلاحاً قوّته تكفي لتعمي ضحاياك عن أي شيء. وكما قال يالوكيد، فإن نصف المتعة هو في تعليم درس أخلاقي، هو: الطمع لا طائل وراءه.